على حافة الحياة

قصص قصيرة

عيسى بيومي

المكتب المصري الحديث

جميع حقوق الطبع والنسخ والنشر محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٤١ هـ-٢٠١٩

رقم الايداع ١٣٩٠٤ / ٢٠١٩
الترقيم الدولي I.S.B.N 978-977-209-276-5

لا يجوز إعادة نسخ أو طبع أو نشر هذا الكتاب أو أى جزء منه بأى طريقة كانت ميكانيكية أو إلكترونية أو التصوير أو التسجيل أو البث عن طريق الشبكات الإلكترونية أو غيرها إلا بموافقة المؤلف على ذلك كتابة ومقدمًا

المكتب المصري الحديث
almaktabalmasry.com

القاهرة: ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت: ٢٣٩٣٤١٢٧
الإسكندرية: ٧ شارع نوبار المنشية ت: ٤٨٤٦٦٠٢

تقديـــم

في عام ١٩٨٩ صدرت مجموعتي القصصية "حصاد الفن". في تقديمي لها شبهتها بألبوم صور يحتفظ به المرء لأنه يقتنص لحظات من حياته وحياة من حوله تعزّ على النسيان ويصعب أو يستحيل استرجاع زمنها، كما أنها تبقى ما بقيت تلك اللحظات عزيزة على النفس، لا يختلف في ذلك لحظات البهجة أو الحزن أو الحيرة لأن مشاعرنا تتطور وتتغير إزاء الأشخاص والأشياء. ربما نتساءل بعد زمن لم ابتهجنا بهذا الحدث ولم حزنّا بغيره أو تملكتنا الحيرة فنبحث عن الصورة التي تبتعث تلك اللحظة من زمن ماض، لنقتفي ما قد تكون آلت اليه النفس من نضج العقل ورشد الإحساس بعد تجربة حياة.

ولا يتوقف الإنسان عن تسجيل لحظات حياته كلما واتته المناسبة فيضيف إلى ألبوم صوره المزيد مما تخيله جديراً بالتسجيل والترتيب والحفظ، ليعود إليه وقتما يشاء حين ينفرد بنفسه أو يجتمع بآخرين.

منذ عام ١٩٨٩ حتى تلك اللحظة من عام ٢٠١٩ التقطت الكثير من الصور أسجل بها لحظات حياة، أقصد كتبت قصصاً قصيرة أحفظ بها ومضات الوعي بما أتفاعل معه من أماكن أو تهتز له مشاعري من بشر. لهذا كان من المنطقي أن أتخير من تلك القصص ما يبدو مستحقاً لمشاركة الآخرين وأضيفه إلى ألبومي السابق أو ما أسميته: "على حافة الحياة"، بعد أن امتد زمن فاعليته ليعبر السنين والأمكنة إلى تلك اللحظة في هذا المكان.

كما أنني ارتأيت الإحتفاظ بالترتيب الذي يعطي القارئ نمطاً يستكشفه بالقراءة المتتابعة أو إذا شاء تخير من الصور أقصد القصص ما تميل إليه نفسه. ما أرجوه أن يجد من يقرأ هذه الصفحات شيئاً فيها يحرك مشاعره أو يثير خياله أو يستدعي فكره، فهذا خلاصة ما آمل أن يشاركني فيه وهو ليس بالقليل.

عيسى بيومى

هامبورج ٧ أبريل ٢٠١٩

على حافة الحياة*

-١-

يوم من أيام يونية مشمس وجميل في مدينة أقصى شمال شرق ألمانيا تسمى «شفيت»، تقع على الحد الفاصل بين ألمانيا وبولندا، حيث ينساب نهر «أودر» في حرية وامتثال حتى يقابل بحر البلطيق. مدينة صغيرة لكنها رائعة لما حبته بها الطبيعة من جمال. هل هو حد الجغرافيا الذي صنع ثقافتين، أو هو مجرد تعبير مختلف لقوة الحياة؟

بدأ سيره من شارع «جارتن» متخذًا اتجاه النهر ساعيًا خلال شارع «برلينر»، مع كل خطوة كان جمال المدينة يتمثل أمامه، الأزهار بألوانها الزاهية، الأحمر، البنفسجي، والأبيض، موزعة على طول الطريق في أحواض متناسقة الأبعاد على الجانبين، الأخضر المفعم يشع حياة من أشجار كثيفة باسقة ممتدًا حتى يقابل زرقة الماء على مدى بصره معلنة جلال النهر، شذا الهواء الذي يتنفسه اختلط بسكينة لم يشعر بها من قبل. تخير أحد المقاعد المتناثرة على امتداد النهر، جلس سابحًا في عالم من وجدانه، على الحافة بين الواقع والخيال، السماء في توافق تام مع رؤيته.

بعض طيور النورس آتية من بحر البلطيق تطير من فوقه وحوله أو تطفو فوق سطح الماء إلى جوار مجموعة من البط تسبح في غبطة، كل فرد معني بأمر ذاته. حاول هو أيضًا أن يحذو حذوهم، فتح كتابه حيث توقف،

* نشرت فى مجلة الجسرة الثقافية عدد ٤٦ يناير / فبراير ٢٠١٨

استأنف القراءة، شعر بانتمائه لهذا العالم، الكتاب يتحدث عن الحياة على الحافة.

-٢-

مضت ساعة، عقله مفتون بتطبيق نظرية الكم على البوصلة البيولوجية، المؤلفان يحاولان اكتشاف كيف تحدد طيور الروبين وجهتها على بعد آلاف الأميال أثناء هجرتها من الشمال للجنوب، سواء كان الوقت ليلًا أم نهارًا، سواء كان مسارها فوق اليابسة أو الماء.

لاحظ أن كل المناضد والمقاعد من حوله قد انشغلت بالناس، معظمهم أزواج من كبار السن، أتوا ليستمتعوا بدفء اليوم وجماله، عدا سيدة على الطرف الآخر من مقعده، ربما فضلت مشهد النهر من هذه الزاوية، حيث الشعور بالزمن لا يكترَث له، أو ربما لم تجد مكانًا غيره شاغرًا. يبدو أنه كان منهمكًا في القراءة ليلاحظها حين جلست، بدت في الخمسينيات من عمرها، لم تهتم كثيرًا بزينتها لتخفي تجاعيد خفيفة حول شفتيها المطبقتين أو عينها اليسرى. هذا ما لاحظه بالتفاتة سريعة إلى يمينه حيث جلسته، انطبع في ذاكرته السريعة فستانها بلونه البني الغامق الذي لا يلائم لون بشرتها المبتهج، لكن ربما يلائم مزاجها، حقيبة سوداء صغيرة استقرت إلى جوارها، كانت عيناها مثبتتين على سطح الماء تراقبان في صمت، بعد دقائق قليلة رفعت يدها إلى وجهها لتمسح شيئًا عن عينيها، هل كانت تبكي؟ كانت تفتح حقيبتها حيث التقت عيناهما، شعر بالحرج، التفت بسرعة إلى كتابه حين وصل سمعه قولها:

ـ آسفة إن كنت أزعجتك.

أحس بدفء صوتها في نفس اللحظة الذي أحس به من خلال نظرتها، كالإلكترون المتواجد في مكانين في نفس اللحظة، ما يطلق عليه علماء نظرية الكم «المكان المتعالي». أحس أيضًا بحزنها يحاول النفاذ من أعماقها رغم مقاومتها له. قال لها:

ـ هو يوم رائع يحق مشاركته مع كل إنسان، مع الطيور والأزهار..

مرت بعض الثواني قبل أن تحث نفسها لتقول:

ـ نسيت أن أسقي بعض أزهاري بالأمس، تذكرت ذلك أثناء الليل، أفزعني أن أكون سبب موتهم فخرجت في الظلام ورويتهم، لست على يقين من بقائهم أحياء فهم من نوع رقيق جدًا.

لم يمكنه مقاومة نفسه لسؤالها:

ـ ألهذا تشعرين بالحزن؟

بعد دقائق صمت وصله صوتها من جديد:

ـ زوجي مات منذ أيام قليلة، الأزهار هي صلتي بالحياة، هل تظنها ستعيش؟

أجابها وهو ينظر إلى الأزهار الكثيرة التي تحيط بهما تضفي على المكان بهجة وجمالًا:

ـ ليس فقط بالماء ترتبط صلتك بالحياة.

ثم أضاف:

ـ الحزن ينبع من الحياة وليس الموت، كيف نشعر بالحزن لما نجهله؟

قالت:

ـ الموت يقضي على الأمل، قضى زوجي على فراش المرض سنوات، مع كل

الألم الذي عانى منه ظل هناك بعض الأمل، الآن ذهب الألم ومعه الأمل.

لم يكن مهيئًا لتلك الأفكار في هذا اليوم الجميل، لكن قتامة اللون في ملابسها كانت علامة حذر، السيدة تبدو وحيدة تعاني يأس مشاعرها. حاول أن يضفي بعض عزاء بقوله:

ـ الحياة مهمة فردية، انظري إلى هذه البطة التي تسبح هناك، تعبر النهر في طريقها بمفردها، وحيدة تمامًا.

قالت تعليقًا على ملاحظته:

ـ ربما الإنسان هو أضعف أشكال الحياة لولا عقله، الأزهار التي نسيت أن أرويها بالأمس، ربما تذبل وتموت لكنها لن تشعر بأي حزن.

قال يجاري فكرتها:

ـ العلم لا يزال عاجزًا عن تفسير وعي الإنسان ما يؤكد ملاحظتك.

بدت غائمة في أفكارها، مرت دقائق في صمت، أمسك بكتابه ليستأنف القراءة، عاد صوتها يغزو عالمه من جديد، قالت:

ـ أمضيت سنوات رائعة مع زوجي، فعلنا كل ما شئنا فعله كزوجين، زرنا العالم، قضينا وقتًا ملؤه المرح ورضى النفس حتى رقد مريضًا، لم يكن هذا في خطتنا للحياة.

كانت تتابع أحد طيور النورس ببصرها بينما الماضي يتابع بحزن ذكرياتها، أضافت:

ـ لم يكن مريضًا جشعًا أو مزعجًا، رضي بعلته كجزء من صفقة حياته، اعتقد أن وجودنا دائم بالرغم من أنه في تغيير مستمر.

كانت المرأة في عذاب حقيقي بالرغم من محاولتها إظهار ضبط النفس.

قال مفترضًا أنها تصغي لما يقول:

ـ تنبأ أحد الكتاب أن الإنسان سيحقق الخلود في المستقبل ويصبح كما أطلق عليه (هومو ديوس) أو الإنسان المؤله، يعني الإنسان الذي يعبد ذاته. هل سيحل هذا معضلة البشر؟ أعتقد أن الموت جزء من الحل وليس جزءًا من مشكلة. الإنسان يرفض العالم الذي وجد فيه نفسه، يحاول أن يغيره أو يغير من نفسه، بينما كل شيء من حوله يروي نفس الحكاية مرارًا وتكرارًا في صور عديدة وطرقًا لا نهاية لها. يجب أن نتعلم من البط وطيور النورس، من كل زهرة، من أية شجرة، أننا لسنا مختلفين.

ذهل حين سمعها تقول:

ـ لو أن الموت جزء من الحل كما تقول، إذن فالانتحار طريق للخروج من هذا المأزق.

رد عليها بسرعة قائلًا:

ـ هل شاهدت أبدًا شجرة تنتحر أو بطة تغرق نفسها؟ لم نأت للحياة بإرادتنا، بالمثل رحيلنا يكون، طالما حفظنا منطق الأشياء.

شعر في تلك اللحظة أنهما ينتميان لعالمين مختلفين، لاحظ عربة «آيس كريم» متنقلة تتوقف غير بعيد من مجلسهما، ترك كتابه على المقعد بينهما، استأذن منها لدقيقة، توجه نحو عربة ال «آيس كريم». مجموعة من الفتية اصطفوا سريعًا قبل وصوله، توقف خلفهم ينتظر دوره. بعد بضعة دقائق عاد إلى حيث تركها حاملًا عبوتين من ال «آيس كريم»، لكنها كانت قد ذهبت، أيضًا كتابه «الحياة على الحافة» الذي تركه على المقعد إلى جوارها، قد اختفى.

-٣-

اتخذ طريق العودة إلى فندق «أندرسون» حيث يقيم، كان شعورًا غريبًا أن يمضي بدون كتابه في يده، كأنه يفتقد جزءًا من ذاته. الشوارع خالية من المارة والسيارات، بينما سحب كثيفة تتجمع في السماء إنذارًا بالمطر، التغيير المفاجيء في الجو ليس مستغربًا هذا الوقت من العام، لم يكن يحمل مظلة لتقيه المطر، لكن خطوات قليلة يقطعها ليجد نفسه في حجرته.

دخل حجرته بعقل مثقل نتيجة حديثه السابق مع المرأة وفقدانه لكتابه. فجأة وجد زوجته في انتظاره، لم تخبره بقدومها، كما أنها لا تعرف أين يقيم في هذه المدينة، المفاجأة كانت غير قابلة للتصديق أو التفسير، خاصة حين لمح كتابه على المنضدة إلى جوارها!

***

علاقة خاصة

كان الظلام جاثماً فالليل ينتصف، وأيضاً مزاجه العام. السحب الكثيفة تحجب القمر وأيضاً انفراده بنفسه. في هذا المكان من ساحل البحر اصطخبت الأمواج مؤكدة تفردها في الوجود وحديثها معه. ساعات مضت وهو يقتفي كل تغيير يعتري محيطه إلا تلك اللحظة من السكون والسكينة، ربما لهذا اختار ذلك المكان فاختصه المكان بتلك اللحظة. لا يمكن انكار تأثيره على الطبيعة أو ربما تأثيرها عليه. على كل حال الوحدة تعني المساواة حيثما يرغب أن يكون.

قالت له بعد أن أنصتت بشغف لوصفه مكانه المفضل:

ـ لكنك لا يمكنك أن تسكن هذا المكان إلى الأبد.

أجابها:

ـ مواجهة الحقيقة مدى الحياة نوع من العقاب.

ثم أضاف بعد لحظات:

ـ فقط الأنبياء قادرون على ذلك.

دعاها إلى هذا المكان ليثبت صدق دعواه، قبلت دعوته، ليس بدافع الفضول فقط لكن لإدراكها قيمة المكان إليه ومدى تأثيره في فكره وكيانه، ربما تكتشف منه غموضه أو تغوص في نفسها وهي في محيطه.

كان الشاطئ مقفراً عند وصولهما، ليس معتاداً أن يبحث الناس في غموض المكان مع برد الشتاء القارص والظلمة تحيط بهم. أشار إلى صخرة قريبة يعرفها بعقله قبل أن تميزها عيناه فهي مستقرة في المكان.

همست محاولة ألا تخدش هالة السكون التي طغت على ذاتها.

ـ هذا المكان لا يتسع لإثنين.

لم يرغب أن يعلق على ملاحظتها قبل أن يصل صخرته، لكنه قال وقد اتخذ مجلسه إليها:

ـ في هذه اللحظة نحن لسنا إثنين، هنا يختلف النظر إلى الوجود، المكان له تفوقه المطلق.

قالت بنغمة يغلفها الحزن:

ـ هنا أنت لا تحتاج إليّ أو أي إنسان آخر.

رد عليها، نظره غائم في اللانهاية:

ـ حاجتي إليك دائمة.

جلست إلى جواره بقدر ما اتسعت الصخرة، كلاهما يسعى بأفكاره وخواطره نحو المطلق المجهول.

تساءلت بعد مضي زمن:

ـ لماذا يأسرنا هذا الاتساع الغير محدود سواء كان بحراً أو صحراء؟

أجابها عارفاً بعشقها للصحراء متسائلاً:

ـ أليس الإنسان جزءاً من الطبيعة أم هو دخيل عليها؟ أعتقد بهذا الاتساع المطلق يبتكر الإنسان الأمل، يتحرر خياله من قيود فرضها عليه قدره.

شعرت بنشوة أن يدرك ما يجول في خاطرها، أن يشاركها ما تحس به، أن يعبر عنه بهذا الوضوح، قالت:

ـ هذا صحيح تماماً، لم أفهم أبداً الخوف من الصحراء أو الشعور بالعجز

في مواجهتها، على العكس، شعرت دائماً بالأمل الذي عبرت عنه الآن كما أشعر به تماماً في مواجهة البحر، أشكرك على دعوتي إلى هذا المكان الخاص من وجودك.

بعد مضي فترة صمت قال فجأة:

ـ لا أدري لماذا يبحث الإنسان عمن يشاركه أفكاره ومشاعره، هذا لا يستقيم مع الطبيعة حيث يمتثل كل كائن لقدره، مع وجود الآخر يختصر الاتساع، يضيق البحر، تنحصر الصحراء.

عجزت أن تصل إليه فقالت محبطة:

ـ هل تطلب مني الرحيل؟

ابتسم في داخله وهو يقول:

ـ لو لم تكوني جزءاً من قدري الذي أمتثل له ما دعوتك لهذا المكان.

لم يعجبها أن تكون جزءاً من قدره كما حاول أن يفسر، اعترضت قائلة:

ـ نحن مرغمون على قبول قدرنا، أنت لست مرغماً على قبولي في عالمك.

قال في نشوة حقيقية:

ـ يا عزيزتي، قبول القدر هو معنى اختيارنا له، هذا كل ما يعنيه وجودنا في هذا المكان، ألم توافقي على قدرته في خلق الأمل؟

غابت في تفكير عميق ثم رفعت رأسها إليه، التقت عيناهما وهي تقول في بساطة:

ـ أحبك.

***

الترحال في اقتفاء الذات

بدأ القطار رحلته ظهراً من الإسكندرية في موعده تماماً، متجهاً إلى القاهرة التي تبعد حوالي مائتين وعشرين كيلو متراً إلى الجنوب، لا يتوقف القطار في رحلته سوى مرة واحدة في المنتصف تقريباً عند مدينة طنطا. معظم الركاب ينتهي بهم المطاف في القاهرة، آخرهم راكب قفز في القطار قبل أن يغادر المحطة بثواني، كان محظوظاً ليجد مكاناً شاغراً في عربات الدرجة الأولى، اندفع نحوه بسرعة، جلس بشعور بالغ الارتياح، ما أن استقرت أنفاسه حتى فتح حقيبته واستخرج كتاباً، بدأ القراءة كأن هذا هو مبتغاه الحقيقي من القفز في القطار والوصول إلى هذا المكان المحدد من عالمه المندفع.

انطلق القطار إلى سرعته القصوى، انخرط الراكب الأخير في عالمه إلى أن أزعجه النادل بسؤال إن كان يرغب في طعام أو شراب. حين أفاق لما حوله بدأ يستوعب ما استحوذ عليه المكان. لاحظ للوهلة الأولى انشغال المكان المجاور له، سيدة تتابع حركة القطار من النافذة وهو يطوي كل متحرك وثابت بسرعة عجيبة تتلهف لمستقبل معلوم. في المقاعد الأخرى من حوله انشغل الركاب في حديث، أو شغلهم نوم خفيف يتحاشون به أو فيه حاضرهم المنصرم.

رمق النادل بنظرة سريعة قائلاً:

ـ هلا سألت السيدة إلى جواري أولاً، من فضلك؟

ابتسم النادل بأدب، أجابه:

ـ لقد طلبت السيدة مسبقاً كوباً من الشاي.

قال الراكب مسرعاً بإنهاء حديثه مع النادل:

ـ إذن بعض الشاي لي أيضاً.

قبل أن يستعيد تركيزه في القراءة سمع السيدة إلى جواره تسأله:

ـ هل تعرف كم مرة سيتوقف القطار قبل وصوله القاهرة؟

التفت إليها قبل أن يجيبها احتراماً لها، لاحظ اهتماماً بالحديث قدر فضولها في معرفة الإجابة، قال:

ـ مرة واحدة كالمعتاد فى هذا الموعد، فى ظنظا.

لم تبدُ من هؤلاء الذين تحاشوا حاضرهم بسنة من النوم، إنهامن الراغبين فى حديث، إذ استمرت تقول:

ـ عادة لا أركب القطار في أسفاري، أفضل السيارة.

فكر بعض الوقت ثم قال:

ـ هذا يعتمد على الغاية من السفر!

قالت بحذر:

ـ أظن المرء يسافر لينتقل، كلما أسرع في الوصول كلما كان أفضل.

تبدو في الثلاثينيات من عمرها بما يفسر له لهفتها على الوصول، سألته بحذر بعد أن لاذ بصمته فترة:

ـ هل يزعجك حديثي عن مواصلة القراءة؟

أجابها:

ـ ليس بعبارتك الأخيرة.

لم تفهم ما يقصده فلاذت بالصمت حتى أضاف مفسراً:

ـ أرتحل لأنتقل إلى مكان آخر قد لا أعلمه، أستخدم كتبي كأسرع وسيلة لتحقيق تلك الغاية.

بدأت تدرك غرابة محدثها، لكن هذا لم يثنها عن استمرار حوارها معه بل زاد من يقينها أن رحلتها اليوم ستكون أكثر تسلية مما تمنت. تساءلت تحاول أن تجرب منطقه:

ـ إذن لا فرق لديك إن كان القطار متجهاً إلى القاهرة أو إلى الأقصر؟

لم يتردد لحظة أن يجيبها على الفور:

ـ يعتمد هذا على المعرفة التي أنشدها، أي الكتاب الذي يشغلني.

حضر النادل بأكواب الشاي، حاولت أن تعيد للحديث بعض منطقها فسألته:

ـ الشاي مشروب شائع في بلدنا، ألا تلاحظ ذلك؟

لكنه كان لا يزال يفكر في كلماتها الأولى، قال كأنه لم يسمع سؤالها الأخير:

ـ نعم، قيادة السيارة تضمن الخصوصية، لكنها لا تأمن الاستقلال.

تنبهت لانشغاله بما قالت مسبقاً فحاورته بمنطقه قائلة:

ـ لا أشك في استقلالي وحريتي إلى مدى قد يقبله المجتمع أو يرفضه.

قال وهو ينظر إلى خاتم في أصبع يدها اليسرى:

ـ حتى كإمرأة متزوجة ؟

ردت بثقة:

ـ نعم، خاصة كذلك، لكن عليّ الإعتراف أن زواجي لا يقاس عليه.زوجي يعمل باحثاً في جامعة القاهرة، متفان في عمله إلى أقصى حد، أسانده قدر

استطاعتي، لا أشغله بمشاكلي، نعيش معاً بعض الوقت في الإسكندرية، معظم وقته يتواجد في القاهرة.

قال بعد قليل من التفكير:

ـ رجل محظوظ، لكنك خلطت بين الاستقلال والحرية.

كان القطار منطلقاً في طريقه مخترقاً دلتا النيل، الخضرة المترامية على جانبيه تتخللها الترع والقنوات كالأوردة والشرايين، الحيوانات بمختلف أنواعها تضيف للحياة وتضفي عليها صوراً واحتمالات عديدة وإن ظل الإنسان محور الوجود.

لم تعلق على كلماته الأخيرة فأضاف كي يزيل حيرتها:

ـ أنا أيضاً لدى ضروراتي سواء مادية أو نفسية لذا أشك في استقلالي لكنني لا أشك مطلقاً في حريتي.

فكرت للحظات ثم قالت:

ـ في قطار مع شخص لا تعرفه من يعبأ بالضروري، ربما كانت فرصة حقيقية لمواجهة الذات بأمانة .. بالرغم من قصر الزمن.

قال بغموض:

ـ ربما لا تنتهي رحلتي بهذا الوقت، وجهتي غير معلومة لي بعد، أو ربما أخطأت اختيار الكتاب.

قالت على الفور:

ـ ربما أخطأت اختيار القطار.

أعجبه ردها، حاول أن يعبر عن إعجابه قائلاً:

ـ لكنني أصبت في اختيار المقعد على أقل تقدير.

قالت تحاوره:

ـ ألا يمنعك حديثي من مواصلة القراءة؟

أجابها:

ـ ليس الكتاب بالضرورة ما تشاهديه في يدي.

نظرت إلى كوب الشاي في يدها ثم إلى عالم متحرك خارج القطار، أفكارها مشتتة في مكان آخر، الرجل الجالس إلى جوارها يبدو بعيداً ومختلفاً عن الرجل الذي هو فعلاً بعيد وإن احتفظ بصلته وقربه منها. ما الذي يتحرك حقيقة في هذا العالم وما هو الثابت، لم تستطع التمييز. حين لاحظته مندفعاً نحو الكرسي الشاغر إلى جوارها لم تميز وجهه بوضوح لكن هالته الغامضة سبقته، مضت في الحوار معه كلما ازداد غموضه واحتمله عقلها، كانت الجاذبية لعالمه تزداد في نفسها دون أن تتبين.

في هذه الأثناء وصل محصل القطار عربتهما يراجع تذاكر المسافرين، قدمت له تذكرتها حين اقترب من مقعديهما، الجالس إلى جوارها أعطاه نقوداً ليحرر له تذكرة، سأله المحصل عن وجهته طنطا أم القاهرة، أجابه أنه يفضل القاهرة، أعطاه المحصل تذكرته تعلوه بعض الدهشة من إجابته ثم تابع عمله، لابد أن هذا العمل أكسبه بعض الخبرة بسلوك الغرباء من بني البشر.

كانت هائمة في خواطرها فتركها لعالمها، اعتاد من الناس أن يلتفتوا عنه بعد حديث قصير معه تتبدى منه غرابته، اعتاد أيضاً أن ينصرف عنهم دون أسف ليسترد خصوصيته، كأن حديثه دفاع عنها أو إذعان لها.

عاد إلى كتابه، إلى عالم لا معنى فيه للزمن، لكنه لم يلبث أن سمعها تقول:

ـ القطار يعبر فرع رشيد من نهر النيل، أشعر بعبوري أيضاً نوعاً من معابر الذات. تأثرت بطريقة تفكيرك، كيف تعبر بها إلى واقع مختلف، بقليل من الكلمات أثرت قضايا معقدة يتجنبها الناس ما استطاعوا.

كان بصره يتابع كوبري رشيد والقطار يمرق فوقه بتأثير ملاحظتها، القطار يفرق الماء على جانبيه كأنه عصا موسى. فكر قليلاً في جرأتها أن تستأنف الحوار، شيئاً لم يتوقعه أو يعتاده، قال متسائلاً:

ـ كل إنسان يختزن وحدته، في لحظة من الزمان أو موضع من المكان يكتشف ذلك لتبدأ المواجهة، البعض يفر والبعض الآخر يملك الشجاعة ليقر بما في نفسه، يتوافق معه أو يثور عليه. هل هذا معبر الذات الذي تقصدينه؟

غمرها شعورجارف بالدهشة أن يتمكن غريب من إدراك ما يعتمل في ذاتها مما أخفته عن أقرب الناس إليها، تمكن هو من تفسيره والتعبير عنه بسهولة وصدق.

وصل القطار محطة طنطا، ملتقي الكثير من القطارات والناس وأيضاً مفترقها، قالت بينما القطار يتوقف للحظات:

لا أعرف كيف يجد القطار مساره الصحيح مع تقاطع العديد من القضبان.

حاول أن يفسر ذلك قائلاً:

ـ هناك من يقوده لمساره الصحيح.

فكرت للحظات قبل أن تقول:

ـ وفي حالة ارتكاب قائده لخطأ يضل القطار وجهته بمن فيه، أفضل أن أرتكب أخطائي بنفسي، أليس هذا معنى الحرية الذي قصدته منذ قليل؟

غادر القطار محطة طنطا، المسافة إلى القاهرة تتضاءل، الزمن المتبقي للرحلة يقصر، ما لم تحاول تغيير وجهته. قالت وقد شعرت بتردده في الإجابة:

ـ لا أستطيع تفسير شغفي بالحوار معك، أو بالأحرى طريقتك في فهم الأشياء والتعبير عنها، ما تبقى من وقت لا يكفي لإرضاء فضولي.

قال مؤكداً خواطرها حوله:

ـ ما نصنعه بالوقت أهم من مداه، كما أننا نحن من يقرر انتهاء رحلتنا، في تلك اللحظة أو هذا المكان، أليس هكذا نرتكب أخطاءنا؟

همست لنفسها:

ـ ربما يجب أن أشاركه رحلة العودة، لا أحب النهايات المفتوحة!

بدا قريباً من همسها لنفسها بقوله:

ـ شعورك أنك أقوى وأكثر سيطرة على مصيرك خلال تلك الرحلة سببه تحررك من واجباتك مع ركوبك القطار. بمجرد أن يصل القطار محطة النهاية يتلاشى هذا الشعور بالانتصار وتعود الذات لسالف عهدها، حينئذ يتشكل واقعاً ساخراً من زوج أوزوجة أو أي إنسان كان. لهذا أتجنب تحديد نقطة النهاية، ربما تنتهي رحلتي في القاهرة ولا أعود إلى الإسكندرية محتفظاً بحقي في ارتكاب الخطأ.

احتارت في أمره، ليس معقولاً ما يحاول هذا الغريب أن يخبرها به. كيف يمكن لإرادة الاختيار أن تخدعها لهذا الحد؟ أن تكون تجربتها لعزيمة النفس وإرادتها الفاعلة رهنا برحلة قصيرة في قطار اختارته بعشوائية محضة؟ ثم لا يبقى أمامها سوى أن تتجاهل ما تكشف من حقيقة لتختفي من بعد في نسيان الذات، لمجرد أن رحلة القطار قدر لها أن تنتهي في القاهرة.

كان القطار يبطئ من سرعته فعلاً مع اقترابه من القاهرة، عجزت أن تتخذ قراراً خاصة حين صرح باحتمال مغادرته القطار في القاهرة، لا يزال هنالك ما يجيش في عالمها مما يتطلب الوضوح والحوار معه. كيف تتأكد من عدم حاجتها له بعد أن يتوارى ويختفي في الجموع المجهولة من البشر؟

تدافعت التساؤلات في نفسها تشتت إرادتها بينما القطار يتوقف عن الحركة ثم يسكن تماماً الى رصيفه المحدد سلفاً بانتظار رحلته التالية.

نظر إليها مبتسماً بمودة وقال:

ـ لا يزال لدينا بعض الوقت حتى يغادر القطار عائداً إلى الإسكندرية، أَمل أن تقبلي دعوتي لكوب آخر من الشاي في مقهى المحطة، إنه مكان الانتظار بين عالمين للجالسين فيه. هناك يمكننا أن نقرر محطتنا التالية، إن لم نكن قد فعلنا ذلك فعلاً!

***

الشقراء بين المد والجزر*

(١)

غروب الشمس في أحد أيام شهر أكتوبر غيّر حياته بما لم يحتسب.

هل هذه مبالغة أم مجرد شغف؟ شاطئ المدينة الصغيرة يبدو مقفرًا. غادر المصطافون «بيرك سير مير»(Berck-sur-Mer)، المدينة المنعزلة في أقصى شمال فرنسا المطلة على بحر الشمال، عائدين إلى عالمهم الأكثر انفتاحًا، أو هكذا يظنون.

تابع خطاه. عيناه مثبتتان في الأفق. وعيه يسبح بين أمواج الذكريات من ماضيه لمستقبله. إحساسه متحفز في عالم بلا زمن، كان مستعدًّا لقبول التغيير.

لم يكن شاطئ المدينة ممتدًّا غائمًا في اللا نهاية كشاطئ الإسكندرية من حيث أتى، لكنه كان يساويه روعته وفتنته وإن اختلفت الأسباب. الإسكندرية تُطل على البحر المتوسط، مكان مختلف، أيضًا وزمن مختلف، حيث الطبيعة تتحدث بلغة مختلفة وإن كانت تبثُّ نفس المعنى، أو هكذا تحدثه!

نظر إلى الجانب الآخر من الطريق يبحث عن مقهى «لى كورنيه دا مور» بين مقاهٍ متعددة منتشرة لخدمة المصطافين، أُغلق معظمها مع عودة زوار «بيرك» من حيث أتوا.

وجد ما كان يبحث عنه، راوده الأمل حيث لاح له طيف امرأة تخرج ثم تدخل ثانية، ربما كانت هي. ابتسم في داخله وهو يتذكر تحيتها له وهو يغادر

* نشرت فى مجلة الجسرة الثقافية عدد ٤٧ مارس / ابريل ٢١٠٨

مقهاها في المرة الأخيرة قائلة بالإنجليزية بلهجتها الفرنسية:

ـ نتمنى أن نراك ثانية!

(٢)

عبور طريق مقفر يشكل تحديًا له ما لم يحدد مسبقًا أين يعبر. هنالك رأى المقهى وحدد وجهته. اقترب منه، يعرف مسبقًا أين سيجلس، إلى مائدة تواجه عالمًا بلا زمن. أتت بعد عدة دقائق بابتسامتها الدافئة لترحب به، فهي تعرفه. شعر بوجودها بالرغم من مواجهته الشاطئ، تحركت عيناه تنظر إليها.

اليوم كانت ترتدي الأخضر، مع زرقة عينيها وذهبية شعرها، بياض بشرتها وحمرة أظافرها، أعلنت للعالم انتصارها.

سألته بصوتها الرقيق:

ـ لم أكن متأكدة من هيئة الرجل الذي يقترب من المقهى بمفرده أنه أنت حتى اقتربت من عبور الطريق، هل أحضر لك القهوة كالمعتاد؟

كانت عيناه تنظران في وجهها السمح، بينما عقله يفكر في سؤالها بحثًا عن إجابة كأنه سؤال القرن، قال:

ـ نعم من فضلك! هل يمكنك تفسير خلو الطريق من العابرين بالرغم من السماح بالمرور في الاتجاهين؟

لم تجفل من غموض سؤاله، يبدو أنها جربت حديثه من قبل واعتادت نوعه من العقول، أجابته:

ـ هي مسألة وقت لا مسألة اتجاه، أثناء الصيف يزدحم الناس لذا يُسمح بمرور السيارات في اتجاه واحد، الآن وقد انتهى الصيف، المرور حر في الاتجاهين.

كانت على وشك العودة إلى داخل المقهى لتحضر له قهوته، لكنه استوقفها بقوله:

ـ أوافقك، لهذا ابتعد البحر عشرات الأمتار عن الطريق، لا أكاد أسمع همساته، نوع من حرية الاتجاه أيضًا.

بعد ثوانٍ من التفكير كيف تجيبه، فضّلت قولًا آمنًا:

ـ أنت تلاحظ تأثير ظاهر الجزر، إنها مميزة في «بيرك»، يتحول الشاطئ فيها إلى مشهد فريد من مساحة ممتدة من الطين حيث ينكشف قاع البحر كلما تراجع ماؤه. هذا يحدث بانتظام، إنها الطبيعة، لا دعوى للحرية من أي نوع.

ابتسم دون أن ينظر إليها، حاول تحديها قائلاً:

ـ يمكنني أن أثبت لك هذه الدعوى إذا رافقتني إلى هناك.

لم تتردد في الإجابة، هذا الغريب أتى ليفسر لها ما تفهمه وتعرفه طوال حياتها، ربما بشكل مختلف تمامًا. قالت وهي تنظر في ساعتها، وابتسامة غامضة على شفتيها:

ـ ينتهي عملي اليوم خلال نصف ساعة، سأحضر قهوتك وأنتهي من خدمة زوجين مسنين جالسين بالداخل، ثم آتي بعد ذلك لأصحبك إلى عالم لا تفهمه وربما لا تستطيع فهمه!

كانُ نظره مثبتاً في الأفق بينما الشمس إلى زوال، ربما كانت محقة، فكر في نفسه، ثم أتاه صوتها مرة أخرى قبل أن تدخل المقهى وتختفي داخله:

ـ على فكرة، اسمي «سيجولين».

همس ظانًّا أنها لن تسمعه:

ـ نعم أوافق!

(٣)

غابت الشمس تمامًا لحظة قدومها إليه، أو ربما بسبب ذلك، ما تبقى من احمرار الشفق مختلطًا بقليل من السحابات المتبعثرة، منحهما اهتداء كافيًا إلى حيث يتجهان.

سارا حافيين في طريقهما فوق رمال الشاطئ التي انسحبت نحو قاع البحر المنكشف بفعل ظاهرة المد والجزر، البحر يتراجع كلما تقدما، تخيل أن البحر يتعمد ذلك ليمنحهما مساحة كافية للسير بجرأة نحوه وليس إلى جواره.

قبل أن يفسر لها كيف تتغلب جاذبية الإنسان على جاذبية القمر سبقته بالقول:

ـ اعتدت الحضور هنا في إجازة عيد القيامة وأنا صغيرة لمشاهدة مهرجان الطائرات الورقية. كنت مفتونة للغاية بملاحظة ما يُحدثه الجزر بالشاطئ من امتداد لعشرات الأمتار. جموع البشر بصحبة كلابهم يتسكعون فوق ما انكشف من يابسة. الأطفال يفتشون عن القوائع والصخور المتخفية. سباع البحر ينعمون بالشمس إذا سطعت. الطيور تمرح بأسباب الحياة، كأن عالمًا جديدًا قد بزغ لينعم به من حضر قبل أن يختفي من جديد.

استغرق في تفكير لدقيقتين قبل أن يقول:

ـ هي حرية التغيير يمارسها الجميع، إذا رغبوا في عالم جديد.

قالت في ثقة:

ـ الأمر مرهون بالطبيعة. القوى التي تحكم الوجود تتحدى قدراتنا على الفهم. أدرس الفيزياء وأعرف ما أتحدث عنه.

قال مبتسمًا:

ـ نحن في عالم فوق الطبيعة «سيجولين»، وإلا كيف أمكن أن نكون معًا في هذا المكان في هذا الزمن؟

هبّت نسمة خفيفة منعشة، لكنها ليست قارصة. كلما اقتربا من حدود الموج ازدادت الظلمة. أجابته قائلة:

ـ ما تقوله لا يفهمه عقلي، يجب أن أتنازل عن بعض المنطق كي أصل إليك.

ضحك راضيًا بشروطها، تَلَمَّس طريقًا أخرى للتواصل معها، قال:

ـ أنا أيضًا أحب الفيزياء، الجاذبية أضعف القوى الأربع الأساسية التي تحكم المادة بالرغم من أنها لا تُدرَك، وتحير العلماء في تفسيرها، إلا أن لها تأثيرًا هائلًا على الكون بأسره.

قالت في توافق واضح:

ـ الآن بدأت تدرك العالم الواقعي، نحن لسنا أحرارًا كما تظن.

قال مستغرقًا في تفكيره:

ـ يا عزيزتي لا تنشدي نصراً سريعًا، نحن لم نلامس الموج بعد.

ثم أضاف لنفسه بابتسامة لم تستطع ملاحظتها:

ـ أنت «سيجولين»، النصر حتمًا حليفك كما يعني اسمك.

تجمعت طيور النورس تردد غناءها الخاص بمرح وخفة، كان مسحورًا بالوجود، يحيط بهما ويشتمل عليها. ظلت ساكنة حتى قال:

ـ أتمنى لو أصبح نورسًا ليوم واحد، أود أن أعرف أين وكيف يقضون ليلهم.

ضحكت بشفتين عذبتين لملاحظته وهي تقول:

ـ أنت فعلًا مخلوق مذهل، هل أنت متأكد مما تريد؟

قال بجدٍّ يحاول إخفاءه:

ـ أريد أن أصل إلى عمق البحر.

قالت ردًّا عليه:

ـ بدأت قدماي تبتلان بالماء فعلًا، أمتار قليلة أو لحظات معدودة ونصبح جزئيًّا في الماء.

قال يجادلها:

ـ ربما يتراجع البحر أكثر.

ردت قائلة:

ـ هذا أبعد وأعمق ما يمكننا السير نحوه، جاذبية القمر تؤدي عملها ولو كانت أضعف القوى تأثيرًا.

استمر في حواره:

ـ بالتأكيد هي كذلك، تلك هي اللحظة التي نُختبر فيها حريتنا.

قالت تداعبه:

ـ هنالك ستبتل ملابسي وأعود إلى البيت مرتبكة، هل هذا ما تقصده؟

بعد دقائق قليلة بدأت برودة الماء تنذره، مع التغير البطيء الذي طرأ بظهور القمر في الأفق. قال بإلحاح:

ـ فكري في الزمن وليس في المكان. الأرض، القمر، الشمس، كلهم متواجدون، إنه «متى» وليس «أين».

قطعت تدفق أفكاره قائلة:

ـ تذكرني بأحد أعلامنا اسمه «يوجين بودين» اشتُهر برسم البحر ومشاهد الطبيعة. بين المد والجزر على مساحات الطين المترامية أنت مشهد طبيعي خلاب أو لحظة زمن شاردة حسبما يُدركها الفنان.

تباطأ خطوها مع ازدياد عمق الماء حتى كادت أن تتوقف وهي تقول:

ـ الآن هي اللحظة التي أقر فيها برؤيتك، واضحة لكنها تُنذر بالخطر، علينا أن نعود على كل حال، إلا إذا كنت تنشد افتراقًا وليس تغييرًا.

بدون تردد، أَسْلَمَهَا يده، وعادا إلى الشاطئ برؤية واضحة لكنها آمنة.

(٤)

نفس الوقت في نفس اليوم من شهر أكتوبر. نفس المقهى، نفس المدينة الصغيرة المنعزلة شمال فرنسا الواقعة على بحر الشمال. نفس الزوجين المسنين داخل هذا المقهى جالسين بداخله.

الرجل المسنّ ينظر في وجه المرأة السمح، لم يؤثّر فيه مضي الأعوام، عيناها الزرقاوان تشعان ذكاء، الشعر الذهبي يضيء بهجة، اللون الأحمر، الآن في شفتيها. فقط بياض بشرتها تأثر قليلًا بالزمن، ارتدت هذه المرأة أيضًا اللون الأخضر.

قال بهدوء يوافق عمره:

ـ حان موعد إغلاق المقهى يا عزيزتي، إنه نفس الموعد الذي صحبتني فيه إلى عالمك منذ سنوات عديدة، هل تذكرين؟

أجابته في ثقه لم تؤثر فيها السنين:

ـ نعم أذكر ذلك جيدًا، كأنه الأمس، تلك كانت لحظة التغييرَ الذي نشدته وسعيت إليه، لا زلت أسمع همسك لنفسك حين أخبرتك باسمي «نعم أوافق»، ماذا كنت تعني بذلك حقيقة؟

***

وحدة المتساويان

«إذن فهذا هو المكان الذي تقابل فيه نفسك؟» قالتها كعبارة تقريرية وليس كسؤال، وجهها يعكس مودة أشعة شمس حانية في يوم جميل من شهر يناير، عيناها تومضان بأمواج البحر، ملايين قطرات الماء تصطدم بالصخور إذا اعترضت طريقها نحو الشاطئ. نعم احتوت العينان عالم البحر، وعيها بدا مشبعاً بضوضاء بيضاء اللون تريح النفس، خلقتها محاولات الموج المستمرة لتمهد رحلتها وتحرر ذاتها وربما هؤلاء الذين يراقبونها.

لم تكن تنتظر منه إجابة فسبح عقلها في مطلق الأفق إلى حيث يختلط البحر بنهايته، من حولها تبعثر قليل من بشر بعضهم مع أطفالهم ليذكروها أن هذا الجزء من الصورة يعكس واقعاً، لكنها لم تعبأ. كان كل كيانها مركّز في الإنسان الواقف إلى جوارها الذي انبهر وعيه بالمطلق إلى حيث انتهى بها. تساءلت في نفسها مجدداً إن كان عالمه افترق لحظة عن الكون المحيط بهما.

-٢-

كل شيء من حوله يمضي لغايته، الأمواج تصطدم بالصخور في إصرار، ليس لها هدف سوى الوصول إلى حيث تعلن انتصارها، البحر يتبدل ويتغير مع كل قطرة ماء تتطاير في الهواء، يعزف موسيقاه منفرداً في لحن لا يتوقف،يشغف الآذان دون ملل، السحب تمضي في وداعة تخلق في السماء مالا نهاية له من أنماط، الريح تحمل لهؤلاء الذين يستنشقونها عطراً يأسر أحاسيسهم بنشوة مطلقة، الشمس تهبط مدرجها نحو مهد جديد لتكرر

ميلادها الذي لا ينقطع. لم يكن هنالك أية عشوائية أو نشاز، الكل يتحرك في تناغم يعزف سيمفونية الأبد.

لم يكن غريباً عليه استيعاب تلك الوحدة وإدراك تناغمها الخفيّ، فخواطره تصطخب كالموج المنفعل أمامه، أو تنساب في سلاسة كالسحب من فوقه، مشاعره تهفو للعطر الأبدي وتلتمس لونه. اكتمال كيانه في تلك اللحظة لم يكن أمراً عادياً، لقد جعله يسبح في وجود من صنعه، لا حاجة فيه للغة، لا يكون فيه وحيداً أو يشعر بوحدة، وجود ليس فيه مكان للحزن أو الأسى أو الندم.

كانت تتأمل صفحة وجهه تحاول أن تهتدي إلى وجوده الحقيقي، شعر بعينيها تبصره، نظر إليها بشغف وقال:

ـ نعم، هنا أتقابل مع نفسي، لأنني هنا أقابلك!

ضغطت على يده بيدها، لم تكن في حاجة لتقول له «أحبك»، في عالمها الان لا حاجة للغة.

***

نهر إلبا وحقيقة واحدة ممكنة

ـ ١ ـ

لم يكن الجو مفهوماً هَذا الصباح من شهر سبتمبر في مدينة هامبورج، بالرغم من توقع المطر، فترة من سطوع الشمس أيضاً توقعتها الأرصاد. هل ستهب ريح كافية لمركب شراعي أن يبحر؟ السماء الملبدة بالغيوم عزفت عن الإجابة، اللون الرمادي يسود، فقط الأمل في التغيير جعل ذلك محتملاً، إنه الوقت الذي تترك فيه الأمور لما اتفق، إلا لهؤلاء الذين يواجهون بإرادتهم الطبيعة غير عابئين بالنتائج، لأن عملهم هو خاتمة رحلتهم.

استقر عزمه أن يتوجه إلى «فيدل» حيث يقع مرسى اليخوت، حيث يرسو مركبه الشراعي. اليوم سيكتشف الحقيقة، هذا وعده لنفسه، بعد ليلة من الحيرة والشك، بدت حياته كسؤال يصعب إجابته. الإبحار سوف يساعده أن يجد الإجابة على سؤال ليلته الصعب، هو متأكد من ذلك، ربما يفك أيضاً طلسم الحياة بأسرها، أو هكذا يأمل.

بعد عقود من العيش مع أسرته، بين أبنائه، ألقت عليه زوجته سؤالاً يتحدى وجوده، سألته هل يعرف لم يعيش، هل يحُدث اختفاؤه من الوجود أثراً، هل من الضروري لحياتها أن تعترف به؟

كان واضحاً أنها تواجه في أعماقها أزمة، أن تلك الأسئلة التي يضطرم بها عقلها تشير إلى شكها في ذاتها، هكذا كانت دائماً، تصطدم به في حيرتها كي تهتدي إلى يقين الواقع وتستعيد الشعور بالحياة، إلا أن هذه المرة تبدو مختلفة، حضور أبنائهم تلك اللحظة ، رسالتها أنها اتخذت قرارا، المأساة

أنها لا تطرح أسئلة صحيحة، أنها تقصد خلق الحيرة وليس طلب الهداية، انبعاث الفوضى وليس استعادة النظام، لم يكن مرادها نشدان الحقيقة على الإطلاق.

هكذا دخل مرسى اليخوت بقلب مثقل وعقل مشغول، لماذا يحاصر الإنسان قدره من بؤس الجهل؟

اصطف سيارته، سار نحو مركبه المتراكي بين مئات المراكب في صفوف متوازية، تنتظر من ينشد الترحال نحو الحقيقة الوحيدة الممكنة. هل يمكن لنهر إلبا أن يستوعبهم جميعاً ويهدي كلاً منهم لمصيره؟

-٢-

كانت واقفة على سطح مركبها الصغير المتراكي على نفس الجانب الذي اصطف فيه مركبه، يفصل بينهما عدد قليل من المراكب الشراعية مختلفة الأحجام، ميزها بظلها وهو يقترب، كانت تفحص الشراع الوحيد في مركبها، لكن نيتها في الإبحار لم تكن واضحة. كانا عضوين في جمعية ملاك المراكب بمنطقة «فيدل» منذ عدة أعوام بالإضافة إلى الجوار الذى يجمع مركبيهما في صف واحد. لاحظ ابتسامتها له وهو يقترب قبل أن تلقي عليه تحيتها:

ـ صباح الخير، لا أظنك تزمع الإبحار اليوم، في هذا الجو الغامض؟

كانت في الأربعينيات من عمرها، نحيلة وقصيرة، وجهها ممتلئ مرحاً، عيناها ثاقبتان، جسدها ينبض حيوية، أجابها:

ـ أرغب في المحاولة، هذا ما تبقى!

بدا لها مشغول البال، لم يتوقف لحظات وهو يمر بها لحديث قصير كعادته، قالت وقد اقترب من مركبه بصوت يسمعه:

ـ هل تبحر بمفردك؟ ألن يصحبك أحد من العائلة؟

أجابها وقد توقف للحظة يفكر في سؤالها:

ـ لا أحد يثق في نهار اليوم كما أفعل.

ثم أضاف:

ـ يظنون أن كل ما يحتاجه المرء للإبحار ريحاً جيدة.

قالت:

ـ ربما اليوم ليس الأفضل للمحاولة، إذا كنت تنشد رحلة جيدة.

ظن للحظة أن الحوار لا معنى له، لكنه قال بالرغم من ظنه:

ـ كل الأيام مناسبة للإبحار، فقط على المرء أن ينشد الحقيقة.

لم ينتظر منها أن تفهم ما قال، لهذا فوجئ حين قالت بعد لحظات صمت:

ـ هذه رحلة ينشدها المرء لنفسه، أتمنى لك حظاً طيباً.

قال منهياً حديثه:

ـ سوف أحاول الإبحار في جزء من «إلبا»، أرغب في اختبار مدى صبري.

ابتسمت وهي تقول:

ـ ربما تجدني هنا حين عودتك لتقص عليَّ كيف كانت رحلتك أو محاولتك، ما لم تسبق نفسك نحو بحر الشمال.

-٣-

ساعدته في فك حبال مركبه المربوطة بالرصيف، كان هذا آخر ما تذكره من مرآها، على الأقل هذا ما ظنه. أدار مفتاح التشغيل في ماكينة مركبه لينطلق خلال الممر المائي القصير الذي يُفضي إلى نهر «إلبا». عشرة دقائق ليصبح في خضم النهر العظيم، حينئذ أطفأ محركه وترك الشراع يحدو بالمركب في مساره، اعتمد على ذاكرته في التوجيه أكثر من البوصلة، فقد أبحر في هذا المسار عشرات المرات منذ بدأ ممارسة هوايته من «فيدل»، تجاهل حقيقة أنه لا يوجد رحلتان متماثلتان بنفس المركب خلال نفس النهر أو أي نهر!

لاحظ بعض المراكب الشراعية أمامه تبحر بمهل بتأثير ريح غير مواتية، ربما على أمل تأتي ريح طيبة، كيفما كانت الحقيقة، لكن اهتمامه انصب على عالم آخر، نشدان المعرفة، التي اعتبرها السبيل الحقيقي للحرية بعد أن أصبح الجهل قوة تسوق البشر إلى أيّ مصير، كان عسيراً عليه دائماً مواجهة الشر بالشر اعتقاداً منه أن الخير لديه من القوة ما يكفي لنصرة الحياة.

لكن كيف يتأتى ذلك والحقيقة تتوارى باستمرار بينما معظم الناس يتخفى ويدعي؟ هل يحدث ذلك بتأثير الزمن الذي نعيشه؟ الحقيقة ليست مؤقتة بل مطلقة لا زمن لها، ربما خُلقنا من أكاذيب أو هكذا طبيعتنا ما لم ننفذ إلى الخلود، لو كان ذلك في مقدورنا.

استمرت الأفكار والخواطر تتناحر في عقله بينما عيناه مثبتتان في الأفق الرمادي الممتد في اللانهاية. هل هو متجه إلى بحر الشمال دون أن يدري؟ الريح تبدو أكثر تجاوباً مما كان منتظراً.

كان مركبه يقترب من نقطة التحية (فيلكومون) التي بدت واضحة للعين، مبنى صغير أُنشئ بمدخل نهر إلبا من بحر الشمال عام ١٩٥٢ لتحية السفن التجارية الزائرة أو المغادرة للنهر بتحية مدينة هامبورج مع عزف النشيد الوطني للعلم الذي ترفعه السفينة. هناك أماكن في هذا العالم حيث تتمكن الرغبة الحقيقية للسلام الإعلان عن نفسها، تساءل هل يمكن أن يكتشف أحد هذه الأماكن في أعماقه؟

السحب تزداد تراكما فوق رأسه، تذكر تحذير جارته أن يجد نفسه في بحر الشمال مع هذا الجو المتقلب، تنبه لضرورة أن يبحر مركبه في دائرة واسعة ليعكس اتجاهه عائداً إلى «فيدل»، هذا إذا كان الجو حقاً هو الخطر الحقيقي، عقله مشغول بأشكال مختلفة للخطر، ليس على يقين من معرفته كيف يتعامل معها، ربما يتطلب الأمر مجرد المعرفة بالحقيقة البسيطة للحياة، إن وجدت تلك الحقيقة.

دون أن يفكر وجد يديه تقبضان على الشراع متجهاً بالمركب في دائرة واسعة تمكنه من عكس اتجاهه. اتخذ المركب مسار العودة، ليس مساره هو، على الأقل ليس في تلك اللحظة، نوع آخر من الشراع يحتاجه ليوجه حياته لمسارها الحقيقي.

-٤-

لاحظ أن المراكب الشراعية القليلة من حوله قد عكس مسارها أيضاً، فقط اليخوت ذات المحركات الكبيرة استمرت في طريقها نحو الشمال اعتماداً على قوتها الآلية، اختراع البشر في مواجهة خداع الطبيعة، مفترضاً نصراً غير معلن، لكنهم يبحثون عن مسار آخر للحقيقة، النهر العظيم احتضنهم جميعاً دون تفرقة.

بينما يقترب من المرسى لاحظ مركباً صغيراً يغادر مقترباً من النهر، تعجب مّن يقود هذا المركب الصغير في ذلك الجو المضطرب بينما النهار مقبل على خاتمته والظلام يسعى من خلفه، هل يبحث صاحبه أيضاً عن مسار آخر للحقيقة؟ بينما يقترب المركبان من بعضهما ميز على الفور الشخص الواقف على سطح المركب الصغير، إنها هي ـ ركز بصره في النهر متسائلاً: «هل هذا صفحة من غموضك؟»

رحب بها وقد أصبحت في مجال صوته:

ـ أهلاً بكِ مجدداً، ماذا تهدفين؟ لم يكن في نيتك الإبحار اليوم، لم في نهاية اليوم هكذا فجأة؟

قالت و وجهها يعبر عن انزعاج واضح:

ـ حديثك اليوم أثار قلقي، انتظرت عودتك بينما ساعات النهار تنصرم، الأرصاد تؤكداقتراب عاصفة، تصورت في نفسي مقدرة البحث عنك فتجرأت على المحاولة واكتشاف حقيقة ما يدور في عالمك.

قال محاولاً الابتسام:

ـ ربما يكون النهر كريماً فيكشف الحقيقة لقاربك، المهم المحاولة كما فعل آخرون وفعلت، هيا نعود للمرسى قبل أن يسود الظلام.

قالت وهي تغير اتجاه مركبها لتتبعه نحو المرسى:

ـ كلماتك تحمل غموض المحيط وليس فقط بحر الشمال أو نهر إلبا كما تتصور، للأمانة لم أظنك تعود مسرعاً، ثم غلبني فضولي مع تنامي القلق أن أقتفي أفكارك أينما أخذتني، لكنها لم تأخذني بعيداً، اكتشفتك أثناء عودتك.

بدا متفائلاً، صوته يحمل دفء الأمل وهو يقول حريصاً أن تسمعه:

ـ اكتشفتي مركبي عائداً، ليس أفكاري وخواطري، إلا أن نكون في واقع مختلف، وهذه الأشياء من حولنا مجرد تصورات لحقيقة وحيدة ممكنة.

تأثرت بنبرة صوته بالرغم من تخفي كلماته الأخيرة في الريح المتنامية، هذا ما جعلها تحاول الاحتفاظ بقرب مركبها من مركبه، كذلك أفكارها وخواطرها ونفسها.

***

نهـر المجـــد

حرارة الجو المعتادة هذا الوقت من السنة تغلف المكان، غياب الشمس المصدر الأبدي للحرارة لم يؤثر في شيء، أحياناً غياب شيء يؤكد وجوده. لهذا فرّ الجميع نحو النهر، الملاذ الدائم للطمأنينة وسكينة النفس.

الظلمة أحاطت بالجميع عدا أضواء الطريق الخافتة وأنوار حالمة ترسلها بعض القوارب، لقد بدا المارة والجالسين كأخيلة تنبيء عن وجود غير حقيقي أو لم يتقرر بعد، أو ربما شخوص من حلم يسعى لواقعه، أو حقيقة في طور الاحتمال والممكن، في كل لحظة تتكاثف الأخيلة لتشيّد واقعاً وتمحو أثر الغياب والتواري في المجهول.

برز من تلك الأخيلة صورتان تتحركان نحو جمع محتشد، لا يرفض النهر القادمين الجدد، فقد كان دائماً سبباً لوحدة الإنسان والأرض التي ينساب فيها، وعلة خلودهما معاً.

الصورتان تتجهان شمالاً بقصد أو بجهل لا أحد يعلم، يعبران الطريق فيكشف الضوء الخافت ملامح رجل وامرأة. يستقبلهما النهر، مؤكداً خلود مجده سواء خفت الضوء أو سادت الظلمة وغلفتهما معاً.

همست في أذنه بعد صمت:

ـ أفهم جيداً لماذا كانت تلك الأرض هبة هذا النهر.

كان نظرها مثبتاً على صفحة الماء مُصراً أن يقتفي عمق ما همست به، يبدو أنها كانت تستأنف حواراً قديماً معه. هزّ رأسه وهو يتطلع في وجهها محاولاً قراءته ثم قال:

ـ أعتقد أن الإنسان هو بطل تلك الملحمة، لقد ابتكر معنى النهر فأصبح هبة الإنسان.

قالت ، لازالت مشغولة بأفكارها وخواطرها عما حاول هو أن يعبر عنه:

ـ أجدادك بنوا حضارتهم لمراقبتهم المستمرة للنهر، استطاعوا قياس الزمن أكثر دقة من غيرهم لآلاف السنين لأن الطبيعة منحتهم هذا الموقع الفريد.

ابتسم بمودة ظاهرة وقال:

ـ هل هذا يعني أن أمريكا تغزو الكواكب في فضاءنا لأن السماء التي تظللها أكثر تحفيزاً للمغامرة؟

ظلت فترة صامتة تفكر قبل أن تجيب:

ـ يحتاج الإنسان لطبيعة مواتية وعالم مستعد كي يحقق إنجازات عظيمة.

اقتربا في سيرهما من قوم يجلسون إلى حافة النهر يحتسون الشاي في أمان، تبادلا معهم النظرة الأولى حين تسبق قراءة العيون حديث الأفواه، ثم ارتسمت البسمة على الوجوه تحية يصحبها دعوة لتناول كوب من الشاي.

أحس بيدها تضغط على يده ليقبل الدعوة، ربما شعرت بالعطش تحت حرارة المساء، أو ربما تسعى لتغيير مذاق حديثهما الذي لا ينقطع، أو لإدمانها شرب الشاي. أفسح لهما القوم مكاناً ليجلسا، قُدم لكل منهما كوب من الشاي، سأله رجل مسن بلغته:

ـ لا تبدو السيدة من أهل هذا البلد، من أي البلاد هي؟

أجابه محاولاً إرضاء فضوله:

ـ هي صديقة!

ثم أضاف ليصرف اهتمامه:

ـ النهر مزدحم بالناس هذا المساء بسبب حرارة الجو على ما يبدو؟

ابتسم الرجل المسن وقال:

ـ الجو يحمل الناس دائماً إلى النهر سواء حاراً أم بارداً ـ النهر مثل أب لنا نأتيه للحماية والشكوى، أو ربما أم لنا .. لا فرق!

أضافت امرأة في منتصف العمر تجلس إلى جواره أدركت ما يعنيه:

ـ قضيت أحلى الأوقات سائرة على ضفافه أبني أحلامي، أو أدفنها.

ترجم ما يقولونه لصديقته فقالت:

ـ لا أختلف معك، إذا كنا نتحدث عن نفس الشيء!

شكر القوم ما أبدوه من كرم ومضيا عائدين إلى حيث ترك سيارته. قبل أن يصلا نهاية الطريق أقرت بما يعتمل في رأسها:

ـ لا شيء يسلبك من هذا النهر أو يسلبه منك، هل أنت راضٍ الآن؟

نظر إلى وجهها، نور المدينة يسطع فوقه متألقاً كاشفاً ما يختلج في نفسها من شعور تمنى لو يغوص إليه سابحاً إلى منابع الجمال فيها، ربما أنقذه ذلك من البحث عن إجابة لسؤالها.

***

شجاعة حب

الطريق طويل لكنه ممهد، السيارة غير مريحة لكنها متينة، الجو جميل مشمس لطيف على غير المتوقع هذا الوقت من العام، ركبا السيارة ممتلئان أملاً وحياة، يا لها من رحلة!

حيث استقبلها ليلة أمس في مطار القاهرة أبدت رغبتها في تحقيق حلمها، مشاهدة صحراء حقيقية، اليوم قدرته على تحقيق أحلامها تحت الإختبار، لقد قرر أن يصحبها إلى مكان في صحراء مصر الغربية، هنالك يمكنها أن تحتضن اللانهاية، هكذا يزن الإنسان مطلق قوته.

في بداية الرحلة نظرت في عينيه زمناً أطول مما إعتادت كأنها تؤكد ثقتها الكاملة فيه، هذا ما يحتاجه المرء لتحقيق حلم حياة ـ لمس خدها بأنامله في عطف، ابتسم، كان هذا تعبيره عن تلك اللحظة الفريدة.

بعد ابتعاده عن القاهرة وصف لها مسار الرحلة قائلاً:

ـ سوف نتجه إلى الطريق الساحلي غرباً ثم نتحول جنوباً لنخترق الصحراء لأصل بكِ إلى مكان حالم يمتد نحو المجهول.

ذكّرها ذلك بعشقه القديم للبحر، ابتسمت قائلة:

ـ في زيارتي السابقة قضينا يوماً ممتعاً على شاطئ السخنة، لازلت أذكر سباحتنا معاً بينما الظلمة تهبط في الأفق.

قال مُسترجعاً ذكرى اليوم البعيد:

ـ لم تكن الظلمة التي قربتني من المجهول، إنما حبك فعل هذا.

قالت غير ملتفتة لغموض عبارته:

ـ كنت تتجه نحو المياه العميقة فنفقد طريق العودة، لذا أغويتك لتغير اتجاهك نحو الشاطئ وتمضي بنا الحياة قليلاً!

قال بمرح:

ـ النساء أفضل رفقة، السلامة غريزتهم الأساسية، لهذا وهبهم الله خلق الحياة، الرجال يبحثون عن المعنى ومنطق الاشياء، يسببون العذاب لأنفسهم وللعالم من حولهم، لكن هذا لا ينطبق علينا.

ضحكت من أعماق قلبها ثم قالت:

ـ هذا لأني أبحث عن المعنى وأنت تّدعي الخلق، أليس كل فنان خالقاً بشكل ما؟

قال وهو ينعطف بالسيارة نحو محطة الوقود المقبلة:

ـ قبل أن نخوض بأنفسنا فيما هو أعمق دعينا نملأ خزان السيارة بالوقود بما يكفي رحلتنا.

خرجت من السيارة بعد توقفه للتزود بالوقود، اتجهت لدورة مياه السيدات، عادت بعد قليل وقد أصبح مستعداً لاستئناف القيادة، كانت تحمل له بعض المرطبات اشترتها من الميني ماركت الموجود في المحطة، شعر بكثير من الامتنان والغبطة في تلك اللحظة، لأنها دون أن تسأله ماذا يفضل أحضرت ما يفضله.

انطلقا بالسيارة غرباً، ساحل البحر المتوسط إلى اليمين بزرقة ماءه النادرة وامتداد صفحته في مدى البصر، لكن بعض القرى السياحية الممتدة إلى شاطئه حجبت الرؤيا لبعض الوقت وعطلت الخيال. قالت له ملاحظة ضجره بسبب ذلك:

ـ لا تنزعج، لم يختف البحر، لم يختبئ، وجوده في داخلك لن تحجبه أبنية أقيمت دون تقدير لروعة الامتداد.

أجابها وهو يحدق في الجانب الآخر من الطريق:

ـ ربما تهبنا الصحراء إجابة واضحة.

ظل صامتاً فترة طويلة من الزمن، ظلت ساكنة تشاركه صمته، كأنما تخيرا عالماً آخر يهيمان فيه بخواطرهما. السيارة تطوي الطريقة مقتربة من العلمين، فجأة سألته وهي تتأمل مشارف الصحراء على الجانب الآخر من الطريق:

ـ لماذا لا نخترق إلى الصحراء طريقاً بلا معالم لنكتشف ما يخفي عن الآخرين، السيارة تبدو متينة ومعنا من الوقود ما يكفي؟

قال وقد اخترقت جدار صمته:

ـ نحن نقترب من مدق تسلكه مركبات شركات البترول الكامنة في قلب الصحراء، يمكننا أن نسلك طريقاً موازياً.

لم تفهم ما يقصده فقال موضحاً:

ـ «المدق» مسار عشوائي في الصحراء تطرقه المركبات، يتفادى الكثبان والوهاد حتى موقع العمل، يمتد عشرات أو مئات الكيلو مترات، تميزه قطع من الحجارة كعلامات موزعة على جانبيه يهتدي بها السائقون.

قالت بعد أن استوعب خيالها ما قال:

ـ لم أقصد طريقاً موازياً، بل طريقاً نكتشفه لأنفسنا بأنفسنا.

هو يعلم ما في اقتراحها من خطر خاصة لو ابتعد بها إلى قلب الصحراء دون بوصلة أو معالم طريق ثم أقبل الليل بظلمته، لكنه أيضاً لمح ما في نبرة

صوتها من رغبة لتحدي المجهول؟ هل يغلب حبه لها خوفه عليها؟ هل يغفل مسئوليته عنها ليحقق ما ترغب فيه؟

احتفظ بصمته وهو ينحرف بالسيارة نحو مدخل الصحراء مقتفياً ما سبقه من سيارات، ثم فجأة انحرف عن المدق يميناً ومضى ينهب أرضاً بكراً لم تطئها قدم حتى غابت أي ملامح ظاهرة للمدق. تهلل وجهها فرحاً، أمسكت بيده اليمنى تقبلها بينما اليسرى ممسكة بمقود السيارة. حينئذ قال لها

ـ يبدو أن قلبي يسبق عقلي، صدقيني حين نرغب في العودة علينا أن نبحث عن طريق.

قالت في حماس :

ـ دعنا نشاهد غروب الشمس تحيط بنا هذه الصحراء الشاسعة، لا تخش أن تكون جزءاً من الطبيعة، عودتنا ترتبط بالزمن وليس بالمكان.

أشفق من حماسها، حاول أن يفلسف وجودهما، قال:

ـ يا سيدتي هناك هدف من وجودنا، لم نُخْلق للحياة عبثاً، لذا لا يجب أن نُهدِرها بحثاً عن طريق في الصحراء.

صمتت بعض الوقت ثم سألته في جرأة:

ـ هل تخشى أن نموت تائهين في سحر صحراء رائعة لا نعرف لها نهاية؟

لم يجد في نفسه إجابة على سؤالها سوى المضي قدماً لا هدف له سوى الأفق البعيد .. الشمس بدأت تميل نحو الغروب فتخلق ظلالاً لما يحيطهما من كثبان الرمال كأنها تأذن لمفردات جديدة للوجود أن تتهيأ للتواصل.

توقف بسيارته ليتابعا الغروب في مشهد خفق له قلباهما، في هذه اللحظة أحاطته بذراعيها وقبّلته .. امتدت اللحظة حتى غابت مع الشمس في عالمها الغامض المثير.

في غضون الساعة توارى ما خلفته الشمس من ضياء، انتشرت الظلمة تغلف المكان لتبدأ النجوم في التألق والإبهار، شيئاً فشيئاً استقر فوقهما عالم لا نهاية لعمقه وامتداده تحفه من أسرار الوجود ما يعزب عن عقل بشر، من حولهما اختفى امتداد الصحراء في اللامحدود الذي مزج مكاناً لا يحد بزمن يعصي على التقدير والحساب، ظلا صامتين أسيرين لجلال اللحظة عاجزين أن يفوها بكلمة حتى نبهها بأنامل أصابعه إلى واقع المكان، ثم همس في أذنها خوفاً أن يخدش صمت الصحراء، مجيباً سؤالها الذي أعجزه:

ـ أحبك.

***

يوم قابلت أحزاني

ليلة يوم سبت حين تلقيت المكالمة، أسرعت على الفور فربما تكون المكالمة الأخيرة، بالرغم من أن هذا تكرر مراراً في الستة الأشهر الأخيرة، لكنني لم أسمح لنفسي باستمرار التكرار، ربما كانت هذه المزة هي الأخيرة. لماذا أنتظر اختلافاً مع المرة الأخيرة؟ هل يجب أن يكون هناك فرق؟ ماذا يمكن أن يكون هذا الاختلاف لو كان؟ لم أجرؤ على التفكير. هل يجب أن يكون هناك اختلاف بين حياة تنتهي وأخرى تستمر؟ لم يكن لديّ وقت لمواجهة إصرار العقل، كان هناك وقت فقط لمقاومة عجز الذات لو كان!

الشوارع مزدحمة كالعادة، ليس بالاحتمالات والتوقعات، لكن بالمارة والسيارات. ماذا أتوقع من طريق يقود لنهاية خاطئة، أو ماذا أنتظر من زمن فنّي للوصول إلى خواء؟

حين وصلت البيت علمت أنه انتقل إلى المستشفى في حالة إغماء، الطريق إلى المستشفى كان ضيقاً لكن أقل صخباً، المارة من حولي ينظرون إليّ دون أدنى انفعال، شعرت كأني أسير في طريق مقفر.

دخولي المستشفى زاد من شعوري بالضيق ورغبة لا مبرر لها للمقاومة. أشارت إحدى الممرضات إلى الحجرة التي يرقد فيها، تقع في عنبر العناية المركزة، الجو المحيط خليط من موجات متعددة، العالم الغير مرئي يتلامس ويتقاطع مع العالم المرئي.

كان يرقد فوق أحد الأسرة أبعاده لا تعُقل، لكن الأبعاد في تلك الأماكن تُقاس حسب الحاجة، أجهزة ومعدات تُبقى على الحياة - أو هكذا يظنون - تحيط به وتنفذ من خلاله، تبُدي أثرها في المجهول أو تُوحي بذلك.

كان الطبيب يتأمله باهتمام عند دخولي حجرته، لاحظني أقترب فهز رأسه، لابد أن عينيَّ صرحتا بسؤالي قبل لساني. قال بعد أن تفحصني لبعض الوقت:

- حالته مستقرة، هل هو قريب لك؟

أجبته :

- نعم، قريب جداً، لو كان ذلك سيساعده.

اقتربت من سريره، نظرت في وجهه، حاولت أن أتواصل معه، لكن العينين مغلقتان على أسرار يمكنهما الإفشاء بها لو نظرتا إليّ. لمست يده المنبسطة إلى جانبي، كأن أنامله تتحرك تترجم ما أخفته العينان. الجسد يصعد إلى أعلى مرتقى، لازالت إرادة قوية تحفظ سره.

قال الطبيب بعد لحظات قليلة ملاحظاً قلقي العميق:

- نحن نوليه كل الرعاية الممكنة، لا تنزعج بهذا الشكل ..

ثم أضاف :

- انتظر في الخارج أفضل!

خرجت إلى صالة الإنتظار لكنني لم أجد الخارج الذي يقصده، الوجه لا يزال يأسرني بعينيه المغلقتين ولمسة أنامله لم تتوقف، صراع النفس يتهيأ للظهور، هل هذا ما قصده الطبيب بالخارج؟ لا أعرف لم قررت الإنتظار ولأيّ فائدة، ما الذي يمكنني تقديمه أو فعله أفضل من المستشفى والطبيب المحترف؟

الوقت كان يمر غير عابئ لدعوة حق أو ادعاء باطل، أمسى المستشفى تلك اللحظة من الليل في سكون تام، حينئذ حثنى شعور جارف أن أعود إلى حجرته.

ضوء خافت ينبعث من محيطها بينما أفتح الباب، كان مستلقياً على سريره كما تركته منذ وهلة، الوجه فقط كان متجهاً إلى الباب، عيناه تنظران في ترقب، ابتسم حين رآني مبدياً ارتياحه ثم قال:

ـ أشكرك لانتظارك، لم أتوقعه، أعرف انشغالك المستمر.

تساءلت وأنا أتقدم نحو السرير ملتمساً يده الممدودة إليّ:

ـ كيف حالك الآن؟ أشعر ببعض القلق عليك.

أجاب بكلمات واضحة:

ـ هذا صحيح، تلك هي اللحظة التي أختبر فيها مقدرة جسدي لمواجهة مستقبله.

شجعته قائلة:

ـ الطبيب واثق من قوتك.

ابتسم في إذعان وقال:

ـ يبدو أنه واسع الإطلاع.

ثم أضاف بغموض:

ـ في نهاية الرحلة تختلف الاحتياجات، ربما يزعج القبطان تغيير المسار، لكنني لا أرى هنالك سحباً تُذكر.

نظرت إليه كأنه سحابة تحتضن مستقبلها في الفضاء الفسيح، قلت:

ـ أتمنى لو كان لدي مثل قوتك، شعوري بقلة الحيلة يعذبني.

تجاهل اعترافي بالضعف، قال:

ـ لا تشعر بالحزن ما لم يكن لديك سبباً قوياً.

قلت محاولاً الوصول إليه:

ـ ألا زلت تؤمن باختيارات الحياة؟

أجاب بيقين:

ـ الإيمان هو المهم في تلك اللحظة، من يستجدي العقل في هذا الوضوح؟

أغمض عينيه في طمأنينة ورضي بينما لازالت يده تحتضن يدي، في تلك اللحظة شعرت بمزيد من الأسى، يبدو أنه أدرك ما أعانيه فقد سألني أن أقترب منه أكثر حتى تصل يده الأخرى إلى كتفي، حينئذ قال:

ـ الإرادة أكثر نفاذاً من الحكمة، لا ترفض ما صنعت يداك، هما جزء من اختيارك، هكذا تكون المسألة أيسر.

شعرت باليد فوق كتفي تهزني برفق، فتحت عينيَّ لأجد الممرضة تقف إلى جواري تنتظر يقظتي، ثم قالت وهي تشير إلى نفس الغرفة:

ـ الطبيب يسألك الحضور الآن.

حين دخلت كان الطبيب يواجه الباب، الملاءة البيضاء تغطي الرجل الراقد فوق السرير حتى وجهه. نظر الطبيب إليّ وقال:

ـ يمكنك إلقاء نظرة الوداع.

أزحت الغطاء عن الوجه ما يكفي لوداع عينيَّ، الرضى يرتسم على الوجه، البسمة تتراءى على شفتيه، لاأعرف كم مضي من الوقت أتأمله حتى أمسك الطبيب بذراعي يصحبني خارج الغرفة وهو يقول بإحساس لا يدعيه:

ـ كثير من الحزن يمكن أن يحطم قلبك.

سمعت نفسي أقول:

ـ لكنني لا أكاد أشعر بهذا الحزن، هل يمكن أن يكون هناك شعور لا نعرفه ولم نجربه من قبل؟

أجاب الطبيب بكلمات أكثر مهنية:

ـ الحزن له معان متعددة وتأثيرات مختلفة، أرجو أن تبحث عن عزاء لنفسك.

كانت الشوارع خالية في طريق عودتي إلى بيتي، من يعبأ بعابر للطريق في قلب الليل؟ التوقعات والممكنات اصطدمت بالعراقيل والمحبطات، توقفت عند شاطئ البحر، انتظرت طلوع الصبح، الظلمة كانت كثيفة يصعب اختراقها، لكنني كنت على يقين من حملها. لم يستغرق علامات مولد جديد كثيراً من الوقت، لم يكن ذلك بالأمر العسير. الشمس بدأت تصعد في تؤدة وشموخ، تابعت صعودها بينما أسأل نفسي:

ـ هل هناك ابداً سبب قوي للشعور بالحزن؟

***

شعاع حياة

ـ ١ ـ

على ارتفاع خمسة وثلاثين ألف قدم، من نافذة الطائرة تأمل سجادة من السحب تمتد بلا نهاية، السحب تختلط وتتشابك لتصنع كل الأشكال والمشاهد، هل كانت تُنبئه بمصير يومه الذي جثم في صدره؟ قراءة المستقبل بورق اللعب أو الحصى، بأوراق الشاي أو فنجان القهوة، براحة اليد أو النجوم، أمر يعرفه، لكنه لم يسمع من قبل عن قراءة المستقبل في السحب.

تأرجح وعيه بين النوم واليقظة لكنه لم يفقد أبداً ارتباطه بحلمه، إلى أيّ العالمين ينتمي، لم يستطع عقله أن يقرر، بينما السحب مستمرة في تنبؤها بقصة يصعب تصديقها.

«ماذا أفعل هنا؟» سأل نفسه، «إلى أين ذاهب؟» استحث واقعه. اقتربت منه المضيفة تسأله إن كان يرغب في مشروب، هذا يؤكد أنه لا يخوض حلماً، لكن ليس بالضبط، من المحتمل أن يصدق عالمه الخيالي ويقتفي مساره في واقعه. ماذا لو وجد نفسه حيث يريد لكن ليس مع من تمناه في خياله أن يلقاه؟ شيء اعتصر قلبه وزاد من نبضه حين حاول العقل منطقه. إنها اللحظة التي يجهض فيها الحلم اعتراض الواقع المفاجئ، عاد يشكك في رغبته، «هل حقاً أريد الحياة مفترقاً عما أحلم به؟».

في ساعات الصباح وجد نفسه في الطريق إلى المطار ليستقل الطائرة التي حجز فيها مكاناً منذ أسبوعين، إذن فالإرادة كان يسوقها اليقين الذي يعجز الآن عن تفسيره، هل يمكن ليقين أن يفسر حلماً؟ قائد الطائرة يعلن عن

بدء الانخفاض التدريجي بطائرته استعداداً للهبوط مما جعله يستعيد ثقته في نفسه أو في واقعه .. هكذا تصور.

سأله الراكب الجالس إلى جواره وهو يبتسم إن كان سيمكث في المدينة أم سيلحق بطائرة أخرى إلى مبتغاه، ربما أراد أن يؤكد له انتماءه إلى عالم الآخرين. هل هو حقاً ينتمي إلى هذا العالم؟ سواء سيمكث بالمدينة أم يلحق بطائرة أخرى فهو بالتأكيد لا ينتمي لهذا العالم، على الأقل في تلك اللحظة من الزمن، على الأقل ليس اليوم. وجد نفسه يبتسم إلى جاره في أدب ويرد عليه بأنه سيسعى إلى طريق يصل به إلى غايته.

السفر وسيلة عجيبة لاكتشاف نوايانا وغاياتنا الممكنة، حاول أن يقنع نفسه، انعكس ضوء النهار من النافذة على كتاب «في إنسان واحد»، رواية لجون إرفينج كان يحاول قراءتها أثناء رحلة الأربع ساعات، محاولة للتواصل مع عالم يخلو من الأحلام كما يخلو من الحقائق الجامدة، عالم من صنعه هو، هذا ما حاوله.

-٢-

أسرّت لها ساعات الصباح الأولى أن يوماً جديداً يولد، هكذا يبدو لكل مخلوق في كل مكان بلغات عديدة مختلفة، لكنها أصرت أنه يوم جديد فقط إذا ولد من أجلها هي، لأنها لا تقبل أن تخاطب كفرد من الناس، تشعر أن العالم مدين لها بأكثر من مجرد ساعات أولى من أحد الأيام، هذا بالضبط ما انتوى العالم أن يفعله اليوم، أن يخاطبها هي، فقط هي. هكذا استيقظت تفيض يقيناً وثقة، على الأقل في تلك اللحظات، حتى أصبحت يقظتها كاملة.

الحلم منحها وضوحاً لما سوف يأتي به اليوم، لأنه انبثق من وعي عميق بالنفس لم تجربه من قبل. أمضت الساعات الأخيرة من ليلة أمس تقرأ المئات من رسائله وما أجابت به على كل رسالة، تساءلت كيف أمكنها اكتشاف ذاتها بهذا العمق من خلال كلماته المكتوبة بالرغم من أنهما لم يتبادلا كلمة واحدة شفاهة طوال أيام رحلتها معه في أعماقها؟

انتهت من حمام الصباح، ارتدت ملابسها بينما تحتسي أول فنجان قهوة لهذا اليوم، ساعات العمل بدأت في الدوران، تختفي في الماضي لتكشف ما هو آت من مستقبل لم يولد بعد، لكن كيانها كله كان مرهوناً بعالم بلا زمن، اختصر في لحظة واحدة، إنها اللحظة التي ستقابله فيها على رصيف محطة القطار، هي لا تعرف أي رصيف هذا الذي سيستقبل قطاراً قادماً من المجهول، وكيف سيبدو لها؟ هل ستميزه فعلاً؟ ماذا لو أخطأته؟ ماذا لو لم يحضر من الأصل ولم يَصْدُق وعده؟

كان أكثر ما يعذبها، ماذا لو حضر فعلاً واستطاعت أن تميزه ثم تلاشت آلاف الكلمات المتبادلة بينهما إلى لا شيء؟ حينها يتحول عالم اللازمن إلى حاضر واقع، يصبح اليوم ملكاً لغيرها، ألم يكن من الأسلم أن تظل في حلمها وتتجنب تحديه بالمجهول؟

إدارة الطاقة موضوع محاضرتها اليوم، لا تشعر بالألفة للحديث عن هذا الموضوع لافتقادها الجانب التطبيقي بالرغم من إعجاب الحاضرين بحديثها، هل مقدرتها على التواصل تفوق معرفتها بموضوع التواصل؟ هل معرفتنا بأنفسنا ضرورة طاغية لتتواصل أرواحنا؟ ألهذا السبب تتبع حدسها وليس منطقها؟

كان عقلها يخلط ما بين محاضرتها ووعد عمرها، هل تدرك أن هناك نفساً واحدةً فقط لكل موجود؟ أنه بمزيد من الأبعاد يمكننا السفر إلى المجهول واكتشاف عالم بلا زمن؟ لكن حلمها كان ثرياً بتلك الأبعاد كما أدركت وحاولت في المزيد، لأنها تهفو إلى السفر في أعماقها وخلق يومها.

ـ ٣ ـ

كم من المرات عبر خلال صالات مطار «فرانكفورت» وممراته متجهاً إلى محطة القطار اللصيقة به؟ في كل مرة كان يلاحظ شيئاً جديداً أضيف أو تطوراً، هذه المرة يبدو المطار كله جديداً في نظره، لأن عينيه تهيمان في عالم مختلف. فقط قدماه تعرفان كيف تصلان به إلى محطة القطار بينما عقله قد أُسر في عالم من المشاعر. «ماذا تكون مشاعرك حين تُعد للإلتقاء بنفسك؟» حاول أن يستنطق واقعه، لهذا خضع كيانه كله للحظةٍ زمنية واحدة، لهذا أخفق عقله في تحرير ذاته.

اللوحة الإلكترونية الضخمة المثبتة أعلى الحائط أمامه تعلن جدول القطارات، متى سيصل قطاره المتجه إلى «إسن» ومتى يغادر ومن أي رصيف، عليه أن ينتظر على رصيف رقم ٦ حيث سيقله القطار مع مئات الآخرين إلى نفس محطة الوصول، لكن محطة وصوله ليست مجرد مكان، لهذا تختلف عن مئات الآخرين، قدرها تحدده لحظة لقائه بها وليس المحطة ذاتها أو الرصيف الذي تنتظره فوقه.

كان يوماً من شهر نوفمبر، الجو بارد، سار على رصيف المحطة عيناه عالقتان بالساعة المدلاة، هل يمضي الوقت أبطأ كلما انخفضت حرارة الجو؟ وجد مكاناً يُسمح بالتدخين فيه، بدأ يجرب مع صبره عارضاً آخر غير الزمن.

لكن بطبيعة الحال فالساعة والقطار ودرجة الحرارة والتدخين ليسوا سوى ظواهر أنفسهم حيث لا جدوى مطلقاً لمصير إنسان، أثار هذا فضوله خاصة حين وصل القطار في موعده ووجد فيه عربته ومقعده الذي حجز.

بينما القطار يزيد من سرعته ليصل إلى مداه، عاد إلى قراءة كتابه، من المهم الوصول إلى معرفة النفس لكن هل هو مستعد لقبول من يكون؟ هل ستقبل حدود عالمه مدى لحريتها؟ ألم يكن من الأسلم الإبقاء على عالم الكلمات منفصلاً عن عالم الأفعال؟ لكن الأحلام لا تصنع أي من العالمين، نحن نجازف بأكثر من سعادتنا لنبرهن على واقعنا، حين نضيف المجهول ونتوقع معرفة الذات.

- ٤ -

الساعة تقترب من الخامسة مساء حين أنهت محاضرتها، موعد وصول قطاره الخامسة، المسافة نحو محطة القطار قصيرة تقطعها سيراً في دقائق قليلة، تصورت الكثير من الأسباب سيعوقها أن تصل هناك في الموعد، شعرت بحاجتها لساعات وليس لدقائق. أسرعت نحو حجرتها في نفس الفندق الذي حاضرت فيه، تأخر المصعد ثوان زاد من نبض قلبها، اندفعت نحو الحجرة، ألقت بحملها من وثائق التدريب هذا النهار فوق منضدة قريبة، نظرت إلى مرآة الحائط المجاورة لباب الحجرة تطمئن على ملابسها، منذ عدة أيام تخيرت لون الفستان الذي ترتديه اليوم، لكنها الآن تتشكك إن كان اختيارها ملائماً، هل الأخضر الذي تخيرته في درجته ومستواه يعكس ما ينتظره؟ سوف يلاحظ ذلك بالتأكيد ويبحث عن معناه، كما يبحث دائماً عن معنى لأي شيء وكل شيء، يظن بإمكانه امتلاك عالم الكلمات، بينما يبدو أن عالم الكلمات هو الذي يمتلكه.

قطعت المسافة إلى محطة القطار في دقائق قليلة، وصلت قبل أن يصل قطاره، ربما تفضل انتظار القدر والمجهول عن حسابات الزمن والمسافات. قوة خفية تجذبها إلى حيث يطغى السؤال على إجابة يبتغيها «هل حقيقة تحملني قدماي إلى مكان أتذكره من حلم رأيته؟» سألت نفسها، ثم تخاطرت مع وعيها «أسبح في موجة حانية تحملني إلى شاطئ آمن لا أراه بعد، لكنني على يقين أنه هناك».

كانت المحطة مزدحمة كالعادة هذا الوقت من النهار، الناس في طريق العودة إلى بيوتهم بعد انتهاء يوم عمل، البعض يتوقف لأن هنا نهاية الموجة التي حملتهم بانتظار موجة أخرى تحملهم إلى مكان آخر مختلف، هل نعيش خلال موجات زمن؟

تسَّرب في كيانها شعور بالغبطة أن ما حملها اليوم إلى المحطة لم يكن نهاية يوم عمل أو موجة زمن تهفو أن تولد من جديد. ميزة القدر أنه غير مرتبط بزمان أو مكان. سعادتها كانت خالصة لا ترتبط بوجوده هنا أو هناك، لقد حقق وجوده الصلة بين حلمها وواقعها دون حاجة لبرهان، لهذا تشعر بأمان وغبطة في تلك اللحظة، لأن اكتشافها حقيقة نفسها أصبح ممكناً. لمحة من حزن شابت شعورها لأن الطريق الذي تحتم عليها أن تمضي فيه كان طويلاً، الدقائق المتبقية لوصول القطار كانت ممتعة بقدر ما كانت مؤلمة، كل لحظات الميلاد تكون هكذا.

- ٥ -

نزل من العربة الأخيرة في القطار، الرصيف ممتد كله أمامه محتشداً بالبشر، هؤلاء الذين ينزلون من جميع العربات، وأولئك الذين اصطفوا في انتظار أن يركبوا مختلطين بالذين في انتظار مقابلة القادمين. تذكر سجادة السحب التي تابعها من الطائرة محاولاً تفسير نبؤتها، تسارعت نبضات قلبه في صدره بينما عيناه تبحثان عن وجهها، قدماه تتقدمان ببطء، هل يمكن أن تكون قد أخطأت الرصيف أو اختلط عليها موعد وصوله، أو علقت في زحام الشارع، أو لم تصدق حلمها؟

مثل شعاع الصباح حين ينقشع الظلام تراءى وجهها في بصره، مثل الحياة حين تبعث في القلب أولى نبضاته شعر بذراعيها تحيطان به، سيظل الزمن الذي انقضى وهو يحتضنها لغزاً، لقد أصبح الرصيف خالياً من الناس، ساكناً من بعد حركة، تحولت رعشتها بين ذراعيه إلى طمأنينة وسكون، هل كانت تبكي من أثر المفاجأة، أم لسعادتها بصدقها؟

همست قائلة: «لا حاجة للكلام حين أقابل نفسي».

تصور نفسه يقول: «كل الكلام ضروري لترجمة هذا المعنى».

ظلت في همسها: «أعرف افتتانك بعالم الكلمات».

ظل في حديثه لنفسه: «إنه العالم الذي سمح بلقائنا ومنح كلينا مقابلة ذاته».

تقدمت عليه بخطوة بقولها: «مازلنا في حاجة أن يعرف كلانا الآخر في عوالم أخرى».

قال في ثقة بينما يده تمسك يدها: «لقد قابلنا أنفسنا، يمكننا أن نكون معاً في أي عالم دون خوف من شك أو عدم يقين».

سارا معاً نحو الفندق الذي تقيم فيه، يتصوران كم من العوالم سيكتشفان معاً، لم تكن سعادتهما حلماً بالرغم من أنها وُلدت من حلم، شعاع حياتهما معاً بدأ بمعرفة الذات، ما من شيء سواه يؤكد نهاية آمنة.

***

أسرى الأحلام

ـ ١ ـ

رآها في صفاء ووضوح، العينان تومضان حباً، الوجه يشع فرحة، البشرة الفضية الناعمة تنبض بحنان ومودة. تساءل في نفسه قائلاً:»إذا كان الوضوح ممكناً في الأحلام، فلم حاجتنا إلى الواقع؟»

أرادت أن تؤكد له وجودها بغض النظر عن العالم الذي ينتميان إليه، اقتربت منه حتى يشعر بحرارة جسدها، عنقها الناعم الجميل يميل نحوه، بينما تتهدل خصلات شعرها، نظرتها إليه تملؤها الرغبة والشوق. لم يقاوم دعوة المجون في شفتيها، امتدت القبلة ما بعد الزمن المحسوس، الحياة أقوى من كل شيء فهي التعبير الوحيد للوجود.

سارا في طريق لم يعرفاه من قبل، شاهدا أماكن لم يشاهداها سلفاً، قابلا أُناساً من عالم مختلف، كأن هذا العالم من الأحلام قادر على تحقيق ما يعجز عنه عالم الواقع، أو هو فعلا كذلك.

أسكرته نعومة يدها وعطر أنفاسها وهو يقول:

ـ كيف أتحقق من حلم لا تعرفين عنه شيئاً بينما أنت فيه، تلك مأساتي.

بدت حزينة وهي تقول:

ـ لماذا لا يمكننا أن نلتقي في منام كما نلتقي في الواقع؟ حينئذ يمكن لكل إنسان أن يحصل على مبتغاه من السعادة دون مشقة؟

رد عليها قائلاً:

ـ لماذا نتذكر عجزنا في تلك اللحظة النادرة؟

أصرَّت على ملاحظتها:

ـ سننسى تلك اللحظة بمجرد استيقاظنا.

أصرَّ هو بدوره:

ـ لن تعرفي ابداً بلقائنا هذا، لتدركي تلامس يدينا.

قالت:

ـ ومذاق تلك القبلة، أنت فقط سوف تتذكره، للأسف!

قال بإصرار:

ـ لتعلمي أن من ينعم بهذا المذاق يتذوق المستحيل.

سألته بكثير من التفاؤل:

ـ لو كان ذلك ممكناً فسوف أتوجه إلى هذا المكان في واقعي، تهديني إليه روحك وما تقاسمناه من صفاء.

تصورها تسأله:

ـ بدون ترتيب؟

وأجابها في حلمه :

ـ هو ممكن في الأحلام، هل نشك فيه واقعاً؟

ـ ٢ ـ

استيقظ من نومه مفعماً بما جربه في حلمه خاصة شفتيها، ثم سيطر عليه شعور بالإحباط والفراغ، حزن مجهول المصدر يجتاح ما لاح في أعماقه من إشراق وسعادة. ما حدث لم يكن سوى صدى لما كان يجيش في وعيه الباطن من أخيلةٍ سيطر عليها سراب رغبته الدفينة، ثم تذكر وعده لها أن يذهب إلى

نفس المكان حيث التقاها في الحلم، سَخِر منه عقله وهو يُنصت إلى وعد في حلم، لكن ما بدد حزنه كان أملاً خافياً في تحقيق ما وعدها به.

ـ ٣ ـ

بدأ يعد نفسه للقاء لا يعرف موعده أو يميز مكانه، في الحلم كان الوقت ربيعاً والمكان فردوساً. هل يُسرع خطاه أو يُبطئ؟ أين يتوقف لينتظر؟ توسل لعقله ألا يفكر بشكل منطقي ولو لمرة واحدة في يوم قد يحقق فيه حلمه الموعود.

بينما يمضي في طريقه أوعزت له نفسه أن يتوقف ليتأمل جمال الأشجار المتكاثفة على جانبي الطريق، في وقفته أنصت بشغف للحظاته التالية، تمنى لو يشارك المخلوقات من حوله فلسفتهم، أن يكون جزءاً من عالمهم الداخلي المجهول.

وصل سمعه خُطى تقترب بينما حواسه مفتونة بجمال المكان، ثم توقفت الخطى حيث يقف، كانت اليد الممتدة نحوه يدها، وهي تقول:

ـ غلب إيماني شكى، هداني حبي بعد أن توارى العقل.

حاول أن يسكن من مشاعره وهو يقول:

ـ المعجزة ليست أن نلتقي، إنما في إيماننا باللقاء.

قالت في تدلل:

ـ هل أخبرك ما هداني إليك في حلمي؟

أجابها متعقلا سؤالها:

ـ ماذا نجني من التكرار؟

استمرت بإصرار:

ـ لكنه مكان اللقاء وزمنه، لابد أن يختلفا في الواقع عما حلمنا به.

قال في ثقة بالغة.

ـ نحن جعلناه مماثلاً..

ثم أضاف:

ـ سعدت بوجودك معي في نفس اللحظة وعين المكان، سيكون هذا برهاني أن عالم الواقع لا يمكنه أن يحولنا لغرباء.

ظلت صامتة، لكنها التفتت إليه بمنتهي الرضا والامتنان، أن إيمانه بوعد الحلم حقق من حلمها وعده .. لكن من قال أنه شعر بالشك فيها كوعد في حلم؟!

***

غير مرحب به

دائم الترحال بين بقاع الأرض وخلال الأزمنة، رسالته ينشرها أينما ارتحل وحيثما اقام، لم تثُنه المصاعب مهما تفاقمت أن يحاول ويستمر في المحاولة، لا ينكر إنسان وجوده وديمومته، لم يخذل أحداً استدعاه بصدق، يهتم بكل آدمي، قوته لا حدود لها، عمقه غير معلوم.

نما إلى علمه اكتشاف مكان جديد في أقصى الارض في عمق الزمن، قرر السفر إليه مؤكداً وجوده اللامحدود. المكان الجديد أصبح معروفاً لكن الطريق إليه كان وعراً ومجهداً. اعتاد أن يتحمل المشاق ويخوض الصعاب ليصل إلى حيث يريد، لم تكن رحلته إلى المكان الجديد استثناء، حيثما توقف ليتأكد من موقعه تلقى نفس الإجابة، أنه لا يزال بعيداً عن المكان المنشود. هو يعلم أن سهولة الوصول لمكان علامة ترحيب لزائره، لهذا لا ينتظر من المكان الجديد سوى التحدي والمكابرة.

دفع الفضول أحد الناس ليسأله:

ـ لماذا الإصرار على الترحال إلى هذا المكان البعيد يا سيدي؟ الجو هناك لا يلائم شخصاً في مثل حالتك مع احترامي لك.

ابتسم في وجهه، أجابه:

ـ لست شيخاً عاجزاً كما أبدو لك، الترحال قدري على الدوام.

استيقظ في صباح باكر ليفاجأ بمدينة أمامه أروع من أن تكون حلماً، أبنيتها عظيمة الأساس مزدانة بزخارف متقنة لم يشهد مثيلاً لألوانها من قبل، عطرٌ مميز يفوح من أرجائها يغيِّب العقول، كأنها أجمل امرأة في الوجود ارتدت

أبهى ثيابها، تزينت وتعطرت بكل ما أتيح لها من ثراء، لكن هناك سور يحيط بها وأبواب تحكم من يدخلها أو يخرج منها. لاحظ التدقيق الشديد في كل من يقترب داخلاً، انتباه الحراس ينبئ بانتظار دخيل غير مرغوب فيه.

اتجه إلى أحد الأبواب القريبة منه بثقته المعهودة في نفسه، قبل أن يخطو خطوته الأولى محاولاً الدخول استوقفه صوت الحارس منبهاً:

ـ هلا انتظرت قليلاً يا سيدي!

قال وهو يتقدم نحو الحارس:

ـ بالتأكيد، انتباهي لك تاماً ودائماً.

سأله الحارس:

ـ أهذه زيارتك الأولى؟

أجابه متردداً:

ـ حين علمت بوجود مدينتكم حضرت على الفور.

قال الحارس :

ـ يبدو أنك ارتحلت من مكان بعيداً جداً.

ـ لكنني لازلت في الزمن الحاضر، مدينتكم ليست ماضياً بعد!

ثم أضاف:

ـ هل تأخر وصولي إليكم؟

قال الحارس بإصرار:

ـ وصولك إلى هنا حقيقي، متأخراً أو مبكراً لا أدري، فقط أخبرني من أنت ولماذا؟

تساءل الرجل بدوره:

ـ ماذا تقصد بمن؟ هل تبحث عن إسم أم كينونة؟ أمّا لماذا فهي ذات أهمية كبرى.

رد عليه الحارس:

ـ هذا لا يهمنا في شيء، فقط أجب على ما سألت.

قال الرجل مبدياً بعض القلق:

ـ هذا لا يهمني أيضاً، لكن هل ستسمح لي بالدخول بعد أن أجيبك ما سألت أم أنك ستمنعني على كل حال؟

ابتسم الحارس في برود وهو يقول:

ـ في هذه الحالة سيهمنا الأمر دون شك. الآن تكلم.

سأل الرجل الحارس مجدداً:

ـ هل يمكن أن أسألك أنا أولاً عن اسم هذا المكان الغريب أو كينونته؟

تعجب الحارس من الرجل قائلاً:

ـ كيف ترحل إلى مكان بعيد كهذا دون أن تعرف اسمه أو كينونته؟ تكلم يا رجل.

أجاب الرجل:

ـ إذا كنت تصر أن تعرفني أولاً فهذه كينونتي، أما إسمي فهو «الضمير».

تبدلت ملامح الحارس فور سماعه اسم محدثه، أصبح وجهه جامداً قاسياً، بحركة سريعة نافذة أغلق باب المدينة وكل أبوابها ليبقيه خارجها، ثم قال بعد أن اطمأن لما فعل.

ـ اسم هذه المدينة هو «تكنولوجيا»، كينونتها لا تسمح لك بالدخول!

***

قرية الشموع

بينما تقترب من الإسكندرية قادماً من القاهرة في الطريق الصحراوي، على بعد ما يقرب من أربعين كيلو متراً تلاحظ علامة مكتوباً عليها «قرية الشموع»، إنها من أقدم القرى في دلتا النيل يضرب تاريخها في عمق الزمن آلافاً من السنين.. قال الجالس إلى جواري في الأتوبيس، راوي القصة، محاولاً أن يثير اهتمامي، عيناه عالقتان بالعلامة بينما الأتوبيس ينهب الطريق نحو الإسكندرية.

لم يكن هناك ما يثير اهتمام أحد، الغبار يملأ الهواء، الفوضى تعم الطريق، اللهم إلا الإعجاب والفخر في عيني الراوي وهو يسرد حكايته. لا أذكر أني سألته ما سبب اهتمامه المفاجئ بتلك العلامة خاصة، لكن تطوع بإخباري بالرغم من عزوفي الواضح:

ـ هذه أول قرية تُنتج الشموع في مصر، يعود ذلك إلى آلاف السنين حين استخرج المصريون القدماء الدهن من الماشية والأغنام واستعملوه في صناعة شموعهم من قبل أن يفعل الرومان ذلك.

أغلقت الكتاب الذي كنت أطالعه لأبدي بعض الاهتمام من باب الأدب، لكنه استأنف يقول دون أن يعبأ بإشارتي:

ـ هل تصدق أن كل بيت في هذه القرية كان يصنع الشموع دون توقف ليلاً ونهاراً؟

لم ينتظر مني أن أجيب أو أبدي دهشتي بل استمر يقول:

ـ كان الليل في هذه القرية مضاء كنهارٍ مشمس، كل أيام القرية كانت مشمسةً، لم يعرف سكانها الظُلمة قط، الوضوح والشفافية سادت حياتهم، أمدوا القرى الأخرى أيضاً بأسباب النور.

حاولت مقاطعته بكلمة استغراب مما يقول لكنه أبداً لم يتوقف ليمنحني لحظة أفوه فيها بكلمة واستمر:

ـ مضت الأجيال في صناعة الشموع، كل فرد يمسك بشمعة أينما ذهب ليلاً ونهاراً، لم يكن هناك سر بين أهل القرية أو مكان لإخفاء سر.

تمكنت للحظة أن أبدي ملاحظة على قصته الغير معقولة، قلت :

ـ ألم يكونوا في حاجة إلى ليل ينامون فيه مثل البشر الطبيعيين؟

قال مقتنعاً تماماً بما يقول:

ـ يا عزيزي، أنت لست في حاجة للظلام لتكون إنساناً طبيعياً، أو تحجب سراً لتكون إنساناً.

حاولت ألا أظهر سخريتي منه بسؤالي:

ـ هل الحال مستمر هكذا حتى وقتنا هذا؟

لم يبد عليه أي إحساس بالسخف وهو يُجيبني:

ـ ظل الحال كذلك حتى أتى يوم زار فيه ذلك الغريب القرية..

توقف لحظات يفكر كأن ذكرى حزينة طافت بعقله ثم استأنف غير عابئ إن كنت حقيقةً مهتماً بما يحكيه:

ـ في البداية لم يُعره أحد اهتماماً خاصاً، فهو واحد من كثيرين يفدون إلى القرية كل يوم ليشتروا شمعها الشهير، لكن أسئلته أثارت انتباه الكثير من أهل القرية الذين قابلوه.

بدأت أذناي تصغيان لحكايته التي لم يقصد أحداً بروايتها سوى نفسه، أثار بعض فضولي، سألته:

ـ أية أسئلة يمكنها أن تثير فضول قوم عاشوا دائماً في النور؟

أجابني:

ـ هذا بالضبط ما تساءل عنه الغريب، سألهم كيف تنامون إذا لم يكن هنالك ظلمة، ما السر الذي يمد نهاركم بلا نهاية؟ تلقى نفس الإجابة من كل من سأل وهم في دهشة من سؤاله وممن سأل!

سألته غير قادر على ضبط صبري :

ـ ماذا كانت إجابتهم من فضلك؟

ـ قالوا له أنهم لا يعرفون غير شيء واحد وهو كيف يصنعون الشموع.

ظللت صامتاً منتظراً أن يضيف ما يوضح به عبارته، لكنه لاذ بالصمت لفترة طويلة حتى شعر بي أحملق فيه ببعض الإحباط، حينئذ قال وهو يتنهد:

ـ كان في ذلك نهاية القرية العجيبة، لقد علمهم الغريب كيف يبتكرون الظلام ويخلقون ليلهم.

حين أدرك ما تعنيه نظرتي إليه من اتهام بالحماقة، أضاف:

ـ مع الظلام وجدت الأسرار طريقها إلى قريتهم، أمكن الدفاع عن الكذب، ضَعُف الإقبال على الشموع شيئاً فشيئاً، بعد وهلةٍ من الزمن أصبحت القرية كسائر القرى الأخرى، لديهم من نور ما يكاد يكفيهم ليرى أحدهم الآخر، وظلمة تكفي كثافتها ليخفي أحدهم نفسه عن الآخرين وحتى عن نفسه، الأيام لم تعد مشمسة كما اعتادت أن تكون فأنشأت الليالي مكانها. باختصار لم تعد هناك شموع كافية. بعد ذلك غادر الغريب، فقدت

القرية كينونتها، لم يتبق معها سوى إسمها، ربما أكون آخر من يتذكر تاريخها.

قلت غير مهتم بإثارة غضبه:

ـ لم أسمع بهذه الحكاية ابداً، وأجدها صعبة التصديق!

ـ لست أول من يشكك في حكايتي، لم يصدقها أحد في الحقيقة، لكنني سأظل أرويها لأنها القصة الحقيقية لهذه القرية ومن حق كل فرد أن يعرفها .. لا تصدق أي قصة أخرى.

نهض من مقعده ليغادر الأتوبيس بالرغم من أنه لم يصل إلى نهاية رحلته، لم يُلق عليّ التحية وإنما انسحب في عالمه تماماً.

لم تعد رحلاتي المتكررة إلى الإسكندرية على الطريق الصحراوي كما كانت بعد هذا اليوم .. دائماً أبحث عن علامة «قرية الشموع» وأفكر في هذه القصة وراويها الغريب.

***

المكتشفون

انتظَرتْ طويلاً قبل أن يجيب سؤالها، لم تكن إجابته ما كانت تنتظر، لهذا نهضت من مكانها، ذهبت لشيء يخصها. كانا يجلسان إلى شاطئ البحر يراقبان الأفق البعيد بينما الشمس تأفل بكبرياء ومجد. الآن بقي بمفرده يتأمل كرةً ضخمة من النار تتوارى في عالم النسيان والمستحيل وإن كان إلى حين.

كان السؤال الذي طرحته لا يزال عالقاً في ذهنه وكذلك ما طرحه من جواب، هو أيضاً لم يكن راضياً عن جوابه. كان سؤالها له: «هل أنت سعيد بحياتك؟»

توقعت منه في تلك اللحظة الحالمة تصريحاً بحبه وأنها سبب سعادته في الحياة، لكنه أجابها بعد صمته الطويل وتفكيره العميق: «السعادة أن تقبل حياتك بحرية مطلقة». لماذا لم يجبها ببساطة: «نعم، أنا سعيد بوجودك إلى جواري صديقة وعاشقة»؟ لكنه لم يفعل ذلك وتركها نادمة على سؤالها. أما السؤال فظل عالقاً دون جواب حقيقي، هذا ما أدركه.

عادت ترتدي لباس البحر، يكشف مفاتن جسدها الرائع، تلك ساعتها المفضلة للسباحة. نظر إليها بشغف وقال:

ـ عزيزتي، أنا سعيد بك وبحبك!

ابتسمت له في خُبث، لم تقل شيئاً، كيف يمكنه أن يقبل حياته بحرية بينما سعادته مرهونة بوجود آخر؟

قفزت في الماء، أخذت تلوح له أن يتبعها، لكنه عاد إلى كرة النار يتابع اختفاءها في المجهول، هي أيضاً أخذت تتوارى في صفحة الماء تحاول الوصول لعمق مجهول.

عاد يقرأ في كتاب «المكتشفون» لبورستين، الفصل الثاني عن البحر واليابسة، شعر بحاجته أن يكتشف هذا الجزء من البحر الذي يحتويها الآن، هل هو حقاً في حاجة لخريطة ملاحية ليصل إلى ما يعرفه؟

بدأت العتمة تلف المكان، أمسى متابعة السطور أكثر صعوبة، وضع الكتاب جانباً، تحول بصره نحوها، كانت تطفو على سطح الماء، وجهها نحو السماء حيث غاب بصرها في اللامحدود، لقد رضيت بحياتها في حرية مطلقة، أيضاً الماء الذي تطفو فوقه لم يكن بهذا العمق.

اقترب من الماء في اتجاهها، اختفت كرة النار تاركةً خلفها احمراراً ينتشر في الأفق إلى حين. وصلت المياه إلى كتفيه وهو لا يزال يتقدم نحوها، لا تستطيع أن تراه وهي في وضعها، أمواج البحر تحتضنها وتطفو بها، عمق الماء يزداد تحت قدميه فيزيد اندماجه، المكتشفون يسيرون دون حاجة لأقدام ويُحلقون بلا أجنحة، إنهم سعداء بحياتهم.

شعرت باقترابه منها، تحول بصرها إليه، فقدت تركيزها في اللامحدود، دارت حول نفسها في الماء، أمست في مواجهته. نظر في وجهها الجميل مبللاً بماء البحر، تبث العينان عمق روحها، نشدت يداه ملمس يديها، بينما القدمان تفقدان ملمس قاع البحر. أمسك بها وطفيا معاً بعيداً عن الشاطئ بينما الظلمة تحتضن الأفق.

حذرته من الابتعاد عن الشاطئ بينما الظلمة تتسرب فى الأفق، فقال:

ـ الظلمة لا تكتنف الأفق فقط، أما الاتجاه فتحدده إرادتك دائماً وليس ما يحيطك من ظلمة أو مياه، هل تفقدين بصيرتك الآن أم أن عينيك تألفان الظلمة ؟

هكذا بإرادته اصطحبها في مياه أكثر عمقاً ينشد الوصول إلى الأفق البعيد، لكنها بهدوء حولته نحو الشاطئ عائدة، وهي تبتسم بينما الضحك يكاد يغلبها.

لم يقاومها وهي تصحبه عائداً من حيث بدأ، لكنه تمتم بصوتٍ تكاد تسمعه

ـ الآن يمكنك الحصول على إجابة لسؤالك ..

ثم أضاف دون أن تسمعه.

ـ حرية الحياة لم تُكتشف بعد!

***

لحظة زمن

ـ١ـ

كان مفتوناً بعظماء الرجال، منذ نضج وعيه وتواصل مع واقع الحياة، أي منذ أصبح قادراً على القراءة. كتاب كارلايل «عن البطولة وعبادة الأبطال» استدعى خياله لعالم ملئ بالعجائب. كيف يمكن للإنسان أن يكون عظيماً؛ نبياً أو مصلحاً ثورياً أو شاعراً أو كاتباً؟

قرأ «قصة تجاربي مع الحقيقة»، عرف سر عظمة غاندي. «الطريق الطويل للحرية»، فسر له قوة مانديلا في مواجهة العنصرية. ما ترمز له «حياة محمد» و «حياة المسيح» من خير، أكد له أن الكائن البشري يستطيع أن يكون عظيماً حقاً، خاصة حين قرأ حيوات ستالين وماو وهيتلر وتبين له هاوية الشر التي يمكن لإنسان أن ينحدر لأعماقها. حينئذ اكتشف الإحساس بالجمال كما تراءى له من خلال الفن وقوى الإبداع لدى أهله.

أخذ يفكر، ماذا جعل هؤلاء الرجال مختلفين، هل يحملون ترتيباً لجيناتهم يختلف عن بقية أفراد جنسهم؟ أم أن بيئتهم استثنتهم ليتفردوا؟ أم أن هناك نداءً خاصاً ينطلق فى أعماقهم من المجهول لا يمكنهم إلا الإستجابة له طائعين؟

كيف يتحول الزيت مع قطعة قماش بيدي «بيكاسو» إلى لوحات زيتية مثل «جيورنيكا» أو «المرأة الباكية» أو «بورتريه دي دورا مار» وغيرهم كثير؟ لا يصدق السحر ولم يستطع أحد أن يفسر له كيف يكون الإنسان عظيماً،

لكنه لا يعرف أن الإجابة على السؤال الذي حيره ربما تكون أقرب إليه مما يتخيل.

-٢-

فتنها جمال الوجه، إطلالة العينين، الرأس نموذج رائع لتمثال بديع، الأنف استقر في مكانه بدقة فوق فم سخيّ عذب الشفاه، الذقن تُحقق توازناً دقيقاً مع خط مركزيّ يصلها بالجبين الكريم، نوتة موسيقية بنسب سيمفونية. النظرة مفعمة بالثقة والكبرياء كفرس السباق، تعلو على الفوز أو الإنكسار، أو تشبه نظرة ثابتة لأسد لا يعنيه سوى الإنصياع لطبيعته، أو نظرة فيل تعكس صبراً عميقاً ورحمة نتاج قوة هائلة لا تلين. تمنت لو تُديم النظر في هذا الوجه، تغوص في تلك العينين، تجرب إرادتها الخلاقة المبدعة.

-٣-

كان يجلس إلى إحدى المناضد جوار النافذة، أمامه كوب من القهوة لم يلمسه بعد، إلى جواره كتاب مفتوح، «الحياة الخفية للأشجار»، نحّاه جانباً، يبدو أنه توقف عن قراءته وراح يتأمل نقطة في الفضاء مضى زمنها. حين شعر بوجودها ظنها مضيفة المقهى حضرت لتسأله ماذا يطلب للغداء، بدلاً من ذلك صافح وجهاً غير مألوف يبتسم له. قبل أن تبدأ ذاكرته تحيره سمعها تقول: «معذرة لإقتحامي عالمك، أطمح للحظة من وقتك». ابتسامتها الدافئة وصوتها الحاني جعلته يبادلها الإبتسام قائلاً: «يوم جميل حين يُسأل المرء ما يمكنه أن يعطيه. أترغبين في كوب من القهوة؟ لم أطلب غداء بعد». اعتبرت ذلك دعوة لها للجلوس في المقعد الخالي أمامه. قالت بينما عيناها

تتأملان وجهه كأنه بورتريه لرينوار: «هذا يعتمد إلى أي مدى يمكنني أن أكون مقنعة». كان مقهى هادئاً على بعد خطوات من مكان عمله، اعتاد زيارته بانتظام لتناول وجبة الغداء، أو بالأحرى قضاء وقت غدائه.

قالت بسرعة حتى لا تطول حيرته: «في الحقيقة أنا في حاجة لمساعدتك».

ظل صامتاً، يتأمل عينيها تنظران في وجهه برجاء، يُسائل نفسه أي مساعدة يمكنه أن يقدمها لسيدة تملك مثل إرادتها. بادرت تقول: «أنا فنانة، أنحت التماثيل، أبحث عن إلهام لأبدأ عمل جديد، حتى رأيت وجهك فبعث في أناملي وهج النحت، لا يسعني الإنتظار للإمساك بالإزميل وبدأ العمل».

قال محاولاً استيعاب حماسها: «الإلهام مرحلة غامضة يصعب تفسيرها، خاصة لمن يبدع عملاً فنياً»، ثم أضاف: «لكنني لا أعرف كيف يمكنني مساعدتك».

قالت أملها في موافقته يتخفى في نبرات صوتها: «أرغب في دعوتك لزيارة متحفي حيث أحاول التعبير عن لغز الحياة باستخدام أنواع مختلفة من الحجر. أحب أن أجرب الجرانيت هذه المرة كوسيلة تعبير وتواصل. هل يمكنك مساعدتي بلحظة من وقتك؟».

-٤-

اصطحبته إلى حيث تعمل، عالم مختلف تماماً عن عالمه. صالة واسعة في الدور الأرضي بأحد المنازل المجاورة، المناضدوالخزانات مبعثرة، أحجار مختلفة الأحجام والأنواع مكوّمة هنا وهناك؛ الحجر الأملس، المرمر، السربنتين، الكلس، الرملي. التماثيل المنظورة لم يكتمل نحتها أُزيحت جانباً

بعيداً عن مركز الصالة حيث برزت كتلة ضخمة من الجرانيت الخام مستندة إلى منضدة معدنية يتوارى تحتها بعض الأزاميل والمجارف والمبارد والمطارق. بينما يحاول استيعاب ما يحيطه من عالم غريب باحثاً عن معناه سألها فجأة: «كيف يمكن للنحات أن يكون عظيماً؟». السؤال عن العظمة الإنسانية يستحوذ على وعيه كلما صادف مبتكراً أو مبدعاً. استمع إلى إجابات مختلفة لم تقنعه، الآن أُتيحت له فرصة لإجابة أخرى قد تقنعه.

لم تحاول إخفاء دهشتها من سؤاله المفاجئ، مرت لحظات تبحث فيها عن إجابة مناسبة لكنها قالت دون أن يتشتت انتباهها: «أتسمح لي ببعض الوقت لعمل الرسومات التمهيديةالتي تُعينني في نحت تمثالي التالي؟»

قال ملاحظاً تجنبها الإجابة على سؤاله: «لا أرى أي تمثال مكتمل هنا حتى أتصور تمثالك التالي».

نظرت إليه بعمق ثم قالت: «ربما يجيب ذلك على سؤالك، النحات العظيم هو من يكمل عمله».

كانا يقفان، بينهما قطعة الجرانيت، يتبادلان النظرات، اقترب يتلمس الجرانيت بينما يتشكل سؤاله: «الجرانيت حجر شديد الصلابة، كيف تخضعينه لأفكارك ومشاعرك؟».

اقتربت من الجانب الآخر من المنضدة حيث يقف، قالت: «تقنياً أستعمل في نحته أدوات خاصة مغطاة بالكربيد ومناشير وحجر جلخ من الألماس، الأصعب أن أكتشف المعنى الذي ينطوي عليه، هذا يشترط الإلهام أو الوحي».

قال: «إذن النحات العظيم في رأيك من يكمل نحت تمثاله، يكتشف معنى الحجر الذي نحته، يُعلن مكنون جماله، حسبما فهمت»، ثم أضاف كأنه ينصت لصوت دفين في أعماقه: «هل يمكن أن يكون ذلك نفس ما يفعله الرسام العظيم بلوحته، الشاعر بقصيدته، الكاتب بروايته، المصلح الإجتماعي برسالته؟ لكن كيف نميز العمل المكتمل في عالم دائم التغير، قواعده ومبادئه لا تبقى على حال، حتى قواعده الدينية ومبادئه الأخلاقية ليست ثابتة على مر تاريخه؟ هذا يعني إذن أن الإنسان العظيم مرهون بالوقت الذي أنجز فيه عمله والمكان الذي واجه فيه تحدياته والتقى قدره، إلى أي مدى ارتقت بعمله حياة من حوله بمقياس الجنس البشري في مسار تطوره».

كانت تنظر إليه مفتونة بتعبير وجهه وهو يحاور نفسه، بدا لها مشغولاً بنقاش بدأه قبل تلك اللحظة بزمن بعيد ولم يتوقف، شعرت أنه يخاطب تماثيلها المتناثرة في المكان التي يظنها لم تكتمل، حينئذ تجرأت بالنظر إلى قطعة الجرانيت تُسائل نفسها كيف ستبدو يوماً ما،توجهت إليه قائلة: «أظن أن الأسئلة التى لا أمل في أن نجد لها جواباً لا يجب أن نسألها، إنها تشبه عملا لن يكتمل أبداً».

قال مندهشاً: «أتستعصي صلابة قطعة الجرانيت هذه على أفكارك ومشاعرك؟»

ابتسمت ثم قالت بغموض: «أعطيتني من وقتك أكثر من لحظة زمن، لهذا عندي أمل أن أجد إجابة لسؤالك لكن ليس اليوم».

-٥-

كم من الأيام أو السنين انصرم منذ حصلت على تلك اللحظة من وقته أو أكثر؟ كم كانت أفكارها عميقة ومشاعرها متوقدة وهي تسعى لكشف سر قطعة الجرانيت ونحت تحفتها الرائعة؟. وقفت تتأمل ما أنجزته بفخر، لم يترك التمثال خلجة من وجهه وهو يخوض حواره مع نفسه لم يعبر عنها، حين اهتز كيانها به.

هل هو تمثال عظيم؟ هل هو عمل مكتمل؟ لا تستطيع أن تقرر. لكنها تعرف أين عُرض ومدة عرضه وكم من الزائرين وقف يتأمله مشدوهاً بجماله. من متحف «ألبرتينا» في «فيينا» إلى «بيتي باليه» في «باريس» إلى «جاليريا بورجيزا» في «روما» ولا يزال يتنقل. بعض نقاد الفن ومحرريه في المجلات الشهيرة وصفوها بالتعبيرية، البعض الآخر عرّفوها بالسيريالية، والبعض صنفوها بالرمزية. حين سؤلت ماذا أرادت أن تنقله للعالم من خلال تحفتها، أجابت أنها لا تملك سوى الأمل في أن تجد إجابة.

واستمرت تسأل نفسها كيف كانت ستكون حياتها لو أن تلك اللحظة من زمنه امتدت لحياة كاملة.

***

حصاد الفن

إحساس بالخوف والهلع تقذف به عيناها كأنما تنفتح أمام بصرها خزائن جهنم متمثلةً فى رؤوس آدمية تطل نحوها بتأففٍ واشمئزاز ، ما أن تلمح فى وجهها قبحه وتشوهه حتى تشيح عنه بسرعة خوفاً من أن تعلق بذاكرتها لمحة منه خاطفة تفزع الصور الجميلة المتناثرة وترهب الخيال ، لايسع أحد أن يصف أمرها فمن يقوى على إدامة النظر ؟ كان هذا سبب خوفها ، أن تسبب للعيون الناظرة انحسار البصر أو للرؤوس المطلة رهبة الخيال ، ذلك ما تتوقعه فى البداية إذا وليت ونزعت إلى الأمان ، لكن ليس هكذا حديثها إذا انتظرت وعزمت أن نتعمق نظرتك ويدوم بصرك لتتفتح بصيرتك.

بذلك تحدث الفنان صانعها وهو يقف إلى جوارها مدافعا لم يجد رانيا نحوها سواى ، استمر يقول :

« أما ما تكتشفه بعد حين فهو رقتها البالغة وشفقتها العجيبة ، شعور بالحنان والعطف يقهر فى نفس الرائى أية نفرة ، يحمله على خجل من نفسه إذ أوحت إليه بدافع الفرار، فإذا بها بعد قليل تنبسط لإحساس بالإنسانية العالية متمثلة فى دعوة تدعوها بخفاء .. أن تحتضنها ، تطمئن لملمسها ،تسكن لجوارها فى هدوء وصمت ، لينقلب ضعفها قوة راحمة وخوفها حرصا أمينا وقبحها جمالا فريداً مبدعاً ، لتمثل أُمّاً خالدةً لجميع الأبناء.

أرأيت ؟ ذلك ما جفل منه الناس فى لمحة خاطفة إليها لا يمكن أن يعلن فيها عن نفسه أى معدن أصيل .. أرهبهم الشكل ونسوا أن الجوهر هو الجدير بالإهتمام ، ألا يعرفون أن الماسة الزائفة أكثر بريقا من الماسة الأصلية؟

سكت كأنه ينتظر منى ردا ، فلما استبطأ أن يتحرك لسانى قال كأن إحجامى عن الرد خجلاً أو خوفاً:

« لكننى يكفينى على أى حال واحد فقط مكنته نفسه من الصمود أمامها وتأملها ، ذلك ما يمنحنى الإحساس بأن هناك من يشاركنى رؤيتى على أى حال».

أحسست بأنه لايزال راغبا فى الحديث فلذت بصمت لم يدم سوى لحظات استأنف بعدها:

« تعمدت أن أبرز فكرتى فى وجه قبيح كى أمنحها لمن يراها خالصةً نقية من أثر الرونق المسبى للرؤية والنظر ، لكى أكتشف كم من الناس يهمه حقيقة الفن كما تُهم فنان .. والنتيجة فرد واحد».

وأضاف لنفسه بابتسامة رضى مغتصب : « لكنه يكفينى .. فهو يعطى على الأقل .. الأمل».

قلت وقد هدأ قليلا وخفَّت حدته وأيضاً رغبته فى الكلام :

ـ أن ما لفت نظرى فى الحقيقة ألوانها المتناقضة . حاولت أن أفسر لنفسى افتقارها للإنسجام دون جدوى ، هل ذلك شئ قصده المصور؟

نظر إلىّ كأنما أذهله سؤالى وقال :

ـ أتقولي أن ذلك ما لفت نظرك ؟ أتعنى أن وقفتك دون الجميع أمامها محاولة منك لتفسير عدم انسجامها مع ألوانك المفضلة ؟ أمعرض الصور حوض من الأزهار المتأنقة لمسعى أسراب النحل يجذبها الأحمر والأصفر وما زهى من أصباغ؟

قلت له دون أن أفهم من حديثه شيئاً كثيراً:

ـ هناك شئ آخر حاولت قراءته فى اللوحة دون جدوى .. كان يمكن اظهاره بوضوح أكثر.

سألنى كأننى سأضيف إلى لوحته معنى جديداً لم يقصده :

ـ أرجو أن يكون مستحقا لجهد عينيك إذن.

قلت له بثقة :

- من المؤكد أنه كذلك فى نظرك أيضاً .. إنه اسم صانعها !

***

توافقيات

نظر إليه ضابط الشرطة بقلق وانزعاج شديد وهو يستأنف حديثه قائلاً:

ـ أعترف أن عقلى كان شارداً ولم يكن انتباهى للطريق مركزاً .. همومى ثقيلة ياسيد أفكر فى مائة شئ فى نفس الوقت .. هموم العمل .. هموم البيت .. هموم الوطن ! هذا يحدث دائما لكنه طغى علىّ تلك اللحظة فلم أنظر طريقى جيدا ، يبدو أن قدمىّ كانت تضغط على موضع البنزين أكثر مما يجب مما دفع السيارة بأسرع مما اعتادته منى .. أعرف أنك ستصدقنى.. كلنا يمر بتلك اللحظات الخاطفة ، بعضنا فقط يجابه حظه فيها بما لاينتظر.. كان اليوم دورى .. هل يمكن لأحد أن يفسر لى ، لمّ يحدث ذلك فى نفس اللحظة التى عبر فيها الرجل الشارع ؟ إننى على يقين أنه كان أيضاً يفكر فى مائة شئ ولم يكن انتباهه إلى الطريق ..

قاطعه الضابط :

ـ هل تعنى أنك دهست رجلا بسيارتك ؟ هل مات .. أين كانت الحادثة .. ما اسمك وأين بطاقتك؟

لم يجب الضابط عما سأله ،استمر يقول بعد إطراقة طويلة :

ـ علينا أن نعترف بأن ما يجرى حولنا يؤثر على تصرفاتنا مهما حاولنا التخلص منه والابتعاد عنه.. مجرد سيارة تُطلق نفيرها عالياً أو عوادمها سوداء ثقيلة محملة بالسموم .. مجرد اشتباك جانبى بين اثنين من البشر .. حتى الوقوف فى إشارات المرور أوقاتاً طويلة عصيبة ، كل هذا وغيره كثير لابد أن يجثم على أعصابنا ويغير من سلوكنا ، ربما نميل أكثر إلى الاستهتار أو الحنق ، أو نندفع إلى الإيذاء والإضرار بالآخرين ... حتى أننى أخشى أن يكون ما حدث رغبة فى الانتقام اختفت من

وراء السهو ودعوى تكالب الهموم .. الإنتقام من أى أحد لأى شئ... هو أيضاً ربما اختفت فيه رغبة التدمير واختار ذاته تعبيرا عنها ... ولكن لمّ اختارنى أنا .. لمّ يحيرنى فى أمرى؟

نظر إليه الضابط بغيظ وقد حدس أن الرجل ربما كان أحمق ، لكن مظهره رفض تصديق حدسه، فمال أكثر إلى الظن بأنه ارتكب حادثته منذ زمن وجاء ليعترف ليريح ضميره من عبء الذنب وما يبلى به الإنسان السوىّ .. ثم أفاق الضابط لحاضره وانتبه لعمله و واجبه أن يحرر محضرا بالإعتراف فقال له :

ـ يمكنك أن تبدأ من البداية فسوف نكتب كل كلمة تقولها .

نظر إليه الرجل بطريقة غريبة وقال :

ـ البداية معروفة يا أخى والنهاية أيضا ، ليس هناك جديداً .. ولن يكون . احتد الضابط قائلا:

ـ إذا لم تتحدث بطريقة مفهومة سألقى بك خارج القسم .. ليس لدينا وقت نضيعه .. ماذا تريد ولماذا جئت إلى هنا؟

رأى الضابط فى وجهه علامات التردد والخوف وهو يقول:

ـ جئت لأعترف .. نعم تلك هى الحقيقة.

ـ بمّ تعترف ؟ أخبرنى بإسمك أولاً..بطاقتك وعملك.

ـ ليس لاعترافى علاقة بإسمى أو عملى أو بطاقتى .. لماذا يهمك ذلك .. المهم ما قلته.

ـ وهل قلت شيئا يُفهم .. أجب على سؤالى .. متى حدثت الحادثة وأين ،هل هربت بسيارتك دون أن يعترضك أحد ، من الضحية ؟.. نريد أن نعرف كل شئ.

ـ لقد قلت فعلا كل شئ ، ليس عندى ما أضيفه.

ـ وأين موضوع اعترافك .. لقد نفد صبرى بك.

ـ ألم أقل لك أنها نفس البداية ونفس النهاية ، ماذا يهمك فيما بينهما .. ما الفرق بين يقظة الضمير لأمر توفرت أسباب حدوثه لكنه لم يحدث وبين أمر توفرت أسباب حدوثه وحدث.. إنما هى لحظة يتوافق فيها القدر ولايحتمها سوى الحظ، لو توافق القدر وحُتم الحظ للقى الرجل مصرعه بسيارتى ، فهل أنام مستريح الضمير وقد توفرت أسباب الحدوث .. ماذا يهم الضمير حدث أو لم يحدث.

تأكد حدس الضابط فى نفسه أن الواقف أمامه به خلل ما فقال له وقد قرر أن يصرفه لشأنه وينتبه لغيره.

ـ المهم عندى أنه لم يحدث شئ.

قال الرجل :

ـ لكننى أردت أن أعترف بتوفر الأسباب ولمن يكون الإعتراف؟

جاراه الضابط :

ـ أرجو أن تكون الآن أكثر ارتياحاً .. هل يمكنك أن تتركنى الآن لعملى ، قد ضاع من وقتى الكثير؟

بعد أن مضى الرجل لحاله لاحظ الضابط وابتسامة السخرية تتلاشى من وجهه وتحل محلها الدهشة ثم الهلع بأنه لولا توافق القدر وحتمية الحظ كما فاه بهما الرجل لامتلأت الأقسام بالأبرياء .. أو المجرمين.

***

المعطف الأسود

كان اللون الرمادى يتناثر مساحات متباعدة فى الزرقة الصافية التى تصبغ السماء وتبعث فى الانسان احساساً بالصفاء والإقبال على الحياة ، حتى هذه السحب المتفرقة ذابت من حرارة البصر لما دام رانياً إلى الصفاء الجميل ، بهذا الغطاء الساحر تغطت الموجات المتلاحقة كأنها تلهو فى فصل الربيع وهى لم تزل عنه قاصية ، لكن بم تؤثر القطرات الخفيفة المتساقطة فى رونق الروح.

وقفت أنتظر تراما ينقلنى إلى مسكنى ، كل هموم النهار مولية مدبرة لا أكاد ألحظها من بعيد .. إذا بها تطفر من بين الواقفين من حولى فتشمل الوجود المحيط كما تشمل السماء أرضها ، يتناثر الناس من حولها مساحات رمادية تذوب فى نقاء صورتها وسمتها الهادئ الجذاب ، معطفها الأسود المزين بزرائر ذهبية ، حزامها الملتف حول خَصرها ، خلق من بياض وجهها مع سواد عينيها وشعرها الناعم المصفوف كائناً لاتقاوم الالتفات إليه .. حتى قلقها الذى حجب من وجهها قليلاً من جماله عوضها بكثير من رقة الشعور واللهفة على الحياة المتفاعلة وقلت لنفسى .. « لوتجلس بجانبى».

صعدت إلى المركبة وجلست ، الناس يتدافعون نحو المقاعد الخالية يطلبون التميز قبل الراحة والهدوء .. ظل إلى جوارى مكان شاغر .. إذا بذات المعطف الأسود الأنيق والبشرة البيضاء الناعمة تجلس إلى جوارى، أنفاسها الحارة تكاد تملأ رئتاي .. اللهم لاعطر صناعى بل رائحتها هى التى لا تقل عن نظرتها الهائمة ملأت أنفى وتأصلت فى كيانى ، كيف للنفس أن تقاوم رغبة الحديث

إليها أو حتى الهمس فى أُذنها .. إنى فى حاجة لقوة هائلة لا قِبل لى بها، سألتها : « أتفضلين الجلوس إلى جوار النافذة ؟» نظرت إلىّ ، نضارة وجنتيها ترسل فى أناملى حرارة غريبة ثم قالت: «إذا شئتَ».. استبدلنا مكانينا مع شكرها وشكرى لها أن أسمعتنى صوتها الأنثوى الناعم الصادر فى أذنى من عند حور عين، هامت نفسى فى ظلام المستقبل ، استولى الخيال الجامح على إدراكى .. يمكننى أن أرتبط بها إن كانت غير مخطوبة بسرعة طاف بصري بأصابع يديها .. خالية مما يشير لخطبة أو زواج، شعرت بفرحة كبيرة لم تعبأ لأسئلة نفسى المتلاحقة : أين رأيك السابق فى الزواج ؟ أين القيود الثقيلة التى وضعتها لعلاقتك بالمرأة ؟ أبهذه السرعة تزهد فى طموحك فتُقبِل على فتاة لمجرد خواطر مبهمة يبتكرها خيالك.. تتصورها إلى جوارك على درب الحياة تذكرك دائما بإقبالك عليها فى عربة ترام ! لقد زهدت فى المركبتين الأخريين وأتت إلى المركبة التى صعدت إليها وجلست إلى جوارى وابتسمت فى وجهى ومن حين لآخر تلتفت تتابع نظرتى إليها .. لابد أن صوراً كمثل تلك الصور تطوف برأسها ومشاعر مضطربة كمشاعرى ترفع من صدرها وتخفضه بين لحظة وأخرى.

أتت محطة نزولى ، لم أنزل ، هى لاتزال إلى جوارى ، مرت أخرى وأخرى حتى اقتربنا من النهاية ، نهضت تستعد للنزول فنهضتُ معها أُمنّى نفسى بدفء سيمائها ونعومة صوتها وأمل يتراءى لى كلما أقحمت بصرى فى الزمن الآتى.

تخيرت كلمات تناسب أذنيها الصغيرتين الدقيقتين اللتين كادتا تختفيان عن نظرى تحت خصلات شعرها ، قلت لها هامسا : « يا آنسة» ، لكننى لم أسمع جوابا بل استأنفت فى سيرها، كأنها لاتسمعنى، كررتُ النداء عليها محاولا اللحاق بخطوها ، التفتت إلىّ لكن بصورة أخرى غير تلك التى شاهدتها

وعرفتها وتمنيتها منذ لحظات ، أوشكت رمادية السحب أن تغلب زرقة السماء الصافية .. قالت : « ماذا تريد ؟» ، قلت محاولا البحث فى جميع كلمات اللغة عن أنسبها وأقربها تعبيرا عن أدبى وحسن مقصدى : « هل يمكننى أن أسألك سؤالاً شريف المقصد ؟» لم تزد عن تكرار ما رددته من قبل ولكن بحدة متزايدة:

« قلت لك ماذا تريد؟»

عذرت لها فى نفسى توخيها الحرص والحذر فأنا لازلت عنها غريب ، استجمعت ما تبقى من شجاعة ،استأنفت حديثى الذى يطول فى نفسى دهراً ثم يخرج كلمة أو كلمتين « هل أنت مرتبطة ؟ أعنى مخطوبة ؟» . ردت بجفاء قاسٍ كالصخر : « لا ، وماذا بعد؟» أوشكت أن أفصح لها عن مُرادى بما انتقيته من كلام فى حرصٍ بالغ ، لكنها لم تمنحني وقتاً كافياً إذ أسرعت بخطوها مبتعدة عنى وهى تردد بلهجة أشد قسوة وجفاء :

« ما أسوأ شباب اليوم ، لايعرفون الأدب ولاينتظرونه من الآخرين».

إذا بما طاف فى رأسى من خيالات متتابعة أوشكت بصيرتى أن تتلمسها حقيقة واقعة تتبدد كأن لم تكن ، كأننى أفقتُ من غفوة قصيرة على صوت قارع كصوت الأقدار .. أو صوت المحصل يصرخ فى أذنى : « المحطة الأخيرة».

***

وميض وشعاع

طفلة لايتعدى عمرها سبع سنوات ، ذات وجه أسود البشرة ، فيه العينان ضيقتان ، الشفتان غليظتان ، شعر مجعد قصير ينتشر كما تنتشر النباتات الطائشة فى أرض جرداء.. لكن من خلال العينين البريئتين ومض وميض الطفولة متسربا فيه شعاع من حزن خفى وهب الفم القبيح شكلاً غامضاً من أشكال الحُسن يحُير المبصر المحقق فيه .. أو هكذا تراءى لى ..

صعدت الطفلة إلى المركبة المزدحمة تدفعها يد غليظة تغوص بها فى الواقفين بإصرار قاس . ترقبت صاحب تلك اليد التى خلقت لتدفع طفلة بهذا الإصرار.. اليد بعروقها النافرة وعظامها البارزة تبدو على ضعفها أقوى من الجسد الذى أمسكت بعضده توشك أن تقذفه فى الهواء .. هاهى صورتها الآدمية تتشكل أمامى .. ويحى أهى أمها ؟ تقدمت الطفلة خطوة تطلب النافذة تتابع منها أشجار الطريق التى تمرق على جانبه بسرعة المركبة.. أخذت بيدها إلى ما سعت فتحررت من اليد القابضة ولو إلى حين . لم تمض دقائق وقد أخذت البسمة ترتسم على الوجه الساكن فتذيب شعاع الحزن وتبعثره ،النظر يلاحق الأغصان فى انطلاقها إلى غير رجعه ، حتى انتزعتها اليد الظالمة إلى جوارها وهمت بضربها ، صاحبتها تردد : «قلت لك ألا تخرجى رأسك من النافذة .. أيتها الشقية !» ولا أعرف كيف تفعل ذلك والنافذة موصدة.

سكتت الطفلة ، استقرت فى وقفتها بعيدا عن النافذة ، عاد شعاع الحزن يتضح فى عينيها من جديد ويطغى على وميض الطفولة الذى بدأ يستخفى من خجل ، تألمت فى صمت وأنا ألحظ فى عينىّ أمها اهمالاً وعدم اكتراث.

فجأة انمحى حزن الطفلة من عينيها بالرغم من أنها لازالت بعيدة عن النافذة وذراعها بقبضة أمها ، نطق كل وجهها بوميض الطفولة إذ سمعتها تصرخ متهللة وهى تشير بيدها فى اتجاه قريب: « إلحقى يا أمى هذا المقعد قد فرغ.. اجلسى فأنت متعبة».

***

مطاف الفكر

على ناصية أحد الشوارع الجانبية جلس ، أسند رأسه إلى أحد المنازل العالية مد ساقيه بعرض الرصيف .. استخرج ورقة من بين لفائف ملابسه المتربة وقد وضع إلى جواره جوالاً مُرقعاً حوى ما فيه من حسنات القوم . انهمك يتأمل ورقته باهتمام كأن بها سرا.

كان الشيب قد اشتعل فى رأسه ، التجاعيد ملأت وجهه ، جفونه ارتخت من الضعف ونحلت من الرمش ، يداه ترتعشان وهما ممسكتان بالورقة بغير ارادته..

انتبه بعد حين لشاب وقف إلى جانبه يراقبه فنظر إليه باستفسار قال له الشاب متلطفا:

ـ الورقة بين يديك مقلوبة يا شيخنا.

رد عليه الشيخ بصوت ضعيف :

ـ كلّ بصرى يابنى ، لم أعد أرى شيئاً بوضوح مهما كان قريباً.

سأله الشاب :

ـ أهو خطاب من قريب ؟ يمكننى قراءته لك.

أجابه الشيخ :

ـ بل هو صفحة من كتاب ثمين عثرت عليه مبعثراً بعد أن مزقه صاحبه.

فسأله الشاب مندهشا.

ـ ما يُدريك أنه ثمين وأنت لم تعرف منه حرفا؟

أجابه الشيخ مندهشا أيضاً :

ـ هل يمزق الانسان غير كتاب ثمين ؟ لو كان تافها ما تكلف جهد تمزيقه وبعثرته.. هو لايُقبل عليه بمثل هذا الغضب إلا وهو يعلم بقيمة ما فيه ، لكنه لايقوى على مواجهته فيستضعف صفحاته .. هكذا علمتنى الأيام.

قال الشاب :

ـ هل تكفى أيها الشيخ الحكيم صفحة مقلوبة أمام نظرك لترسل هذا الحكم؟

أجاب الشيخ بحدة :

ـ يابنى ! إننى أقرأ طيلة خمسين سنة مضت فهل يصعب علىّ بعد هذا الزمن أن أكتشف الغث من الثمين بصفحة من كتاب ؟

قال الشاب محتجا :

ـ لكن الكتب تختلف عن التحف والمصوغات وما يمكن تزييفه ، والتى تحتاج حقا لعين خبيرة فى تصنيفها.

قال الشيخ متهكماً :

ـ أنت لاتعرف شيئاً.

رد عليه الشاب ساخراً :

ـ إذا كان لديك كل هذا القدر من الحكمة فكيف انتهى بك مطاف فكرك إلى ما أرى؟

سكت الشيخ طويلاً قبل أن يجيب كأنه يحدث نفسه :

ـ كلمة الفكر تلك هى سبب بلاءي وعلة ضلالى.

قال الشاب وقد زاد جده فى محاورة الشيخ :

ـ كيف تضل يا عمنا مع كل هذا العمر ؟ امتداد حياتك كفيل أن يتيح لك حكمة الحكماء وفلسفة الفلاسفة.

ـ هذا ما تظنه ، أما الحقيقة فهى سيطرة المادة على حركة الحياة فبم تفيدك الحكمة والفلسفة إذن مع طول الطريق؟

ـ لكنك لازلت تقتفى آثار المعرفة ولو كانت صفحة من كتاب بالرغم من يأسك أن تحتكم الحياة فى حركتها إلى العقل.

ـ إنها العادة كما أننى كما تلاحظ لا أقوى حتى على قراءتها .. إننى أحيا عالةً على الناس ممن جعلوا المادة غاية حركتهم .. أليس ذلك ضلالاً؟

ـ إنما أرى ذلك ضلالاً للناس عن قيمة أمثالك ممن يحملون مشعل المعرفة.

ـ هذا كلام يُضحِك لكننى لا أقوى حتى على الضحك .. دعنى .. لاتحرك مياهاً سكنت وركدت أعماقها فإنى بانتظار الصمت.

ـ اننى مؤمن بما أقول . بل إننى سائر على درب العقل والحكمة فبدونهما لا أفهم للحياة غاية.

بدت السخرية تتراقص فى نظرات الشيخ الشاردة وهو يقول :

ـ لافائدة يابنى .. لن يتعظ مثلك بمثلى كما لم أتعظ من قبل .. جزء من مأساة الإنسان الخالدة .. أن يُصر على التجربة بنفسه ظاناً أنه أقدر وأحق.

ـ جُبن المحاولة لايفيد وهى ليست حكراً على أحد.

لم يجد الشيخ فى نفسه حاجة لاستمرار حديث تكررت نهايته مئات المرات فآثر أن يبتعد عن محدثه وهو يقول:

ـ إن كنت مصراً على المحاولة فاصنع لك جوالاً فسوف يفيدك حين ينتهى بك المطاف.

لم يدرك الشيخ أنه قد أعطى الشاب بحديثه بعض الأمل.

***

عاطفة

استغرق السكون كل شئ ، نشر الصمت غلالته الشاحبة فضربت على المكان لوناً غامضاً مُحيراً ، بدا كأن كل شئ مستقر فى موضعه لن يتحرك أبد الدهر .. هكذا وثق فى الزمان.

لعل للظُلمة الهابطة حق الألفة والإنسجام مع هذا الثبات الطاغى ، لكنها لاتثق فى الزمن مثله لأنها ستتحول بعد حين .. أما فى تلك اللحظة فلا لوم أن يحتضنها الثبات بأطرافه ويتهيأ معها لسكينة تصبغ حركة أى كائن بصبغتها فتمنع عنه التبدل وتُهيئهُ للرضا والحمد .. لو يتمرد فحظه أن يرغم إلى ثبات قبلته وأعلنت عنه جميع الأشياء .. هكذا شمل الهدوء صفحة الحياة.

فى لحظة خاطفة انتشر الضجيج ساد الهرجَ تدافع الناس فى كل اتجاه مهرولين كأنما استحوذت عليهم الشياطين .. الصياح يتعالى والصراخ هو درجة الصوت المسموع .. مَزق الزمن عهده ونقض موثقه ، أمست الحركة والضوضاء من عملائه ، كأن السكون قد انمحى عن الوجود والصمت اندثر فى الأزل .. حتى الظلمة التى أقبلت ملتمسة مسكنها المألوف تحطمت وتناثرت مساحات تضيق وتتسع كلما تعالت فى السماء ألهبة النيران العاتية.

قد كانت الأشياء فى ترقب دون أن تدرى .. كانت تنتظر سبباً لفناء سكونها ، وان كانت الأرجل تمرق والأيدى تندفع فى لمح البصر تُطفئ ما تصله من نيران .. تطلب الحياة لها ولما حولها ، تنشُد من جديد السكون والصمت.

***

بيبو

« بيبو » بائع الجرائد ، له هيئة ثابتة لاتتغير سواء اختلفت الأجواء أو الأنباء، دائماً أراه ساكناً إلا إذا ارتفع صوته: أخبار .. أهرام ، وفيما عدا هذا تحس كأن فى رأسه شيئاً لا يوحى به لأحد حتى نفسه اذا واجهها فى خلوة مفاجئة ! لكنك إذا تحدثت معه عدة مرات أدركت أن إحساسك باحتوائه على شئ ذى قيمة إحساس زائف لا حقيقة من وراءه ، فكلماته بسيطة تافهة يغلب عليها أسلوب الرعاع ، فتنفر منه بعد حين وتكتفى بإلقاء القروش أمامه كل صباح ، تتناول جريدتك وتمضى وقد لا تلقى عليه بالتحية ، أنت تشعر أيضاً أنه فى غير حاجة لتحيتك. بعد مضى عدة شهور يعاودك إحساسك الزائف من جديد ، تتشكك فى مقدرتك على كشف مخبوء نفسه فتعود تحادثه ويعود مرة أخرى لأسلوبه الممجوج.

كنت دائما أسأل نفسى ما الذى تعنيه الحياة لآدمى مثله ؟ فى الصباح الباكر يتسلم حصته من الصحف ، عند الظهيرة يكون قد باعها ، فيمضى إلى سباق الخيل يقامر بما كسبه فى حلبة الرهان ، فإما عاد مجبوراً بعشائه وسجائره وأمضى ليله مع رُفقة السوء أو انقلب على فراشه بمعدته الفارغة ورأسه المشوش، كنت أفاجئه أحياناً وهو يدفع بالرهان فينظر إلىّ كأنه لايعرفنى ووجهه يؤكد عدم المبالاة.

صباح اليوم ألقيت اليه بثمن الجريدة كما هى عادتى ثم تناولتها ، تلاقت عيناىّ بعينيه مصادفةً فوجدت فيهما دموعاً وعلامات الكبر فى وجهه ازدادت وضوحا.. سألته بتحفظ «ماذا وراءك اليوم يابيبو .. هل خسرت كثيرا بالأمس؟»

نظر إلىّ كأنما أحس فى سؤالى لمسة عطف غير مقصود ، رد بصوتٍ مضطرب:

«نادراً ما أكسب ياسيدى.. الأمس يولى ومعه ما حمل من خسارة أو ربح فلا أذكر عنه شيئاً فى الصباح» سكّتْ عسى أن يفسر لى الأمر فسكتَ هو أيضاً كأنما نسىّ سؤالى ومعه نسىّ البكاء ، لكن فضولى رغّبنى فى تكرار السؤال فأجاب هذه المرة: « أبى مات بالأمس» فقلت باستغراب : « أبوك؟» فأجاب : « نعم .. له من العمر مايزيد عن مائة . هل سأعيش مثله ، الله يعلم» دفعتنى جُرأتى ازاء هذه الرغبة الشديدة فى العيش أن اسأله متشككا : « ما قيمة أن تحيا مائة عام أو ألف عام؟» نظر إلىّ ، أجابنى بدهشة واستغراب : « ما قيمة أن أحيا؟ لست أدرى والله.. أخبرنى أنت فأنا كما ترى كالحمار» فضحكتُ ومضيتُ لشأنى.

فى اليوم التالى وجدت صبياً يأخذ موضعه من ناصية الشارع ، فلم ألتفت إليه. وبعد عّدة أيام من تكرار مشاهدتى له سألته : « أين البيبو يا ابنى ؟»

إبتسم ببلاهة وأجاب : « يرقد فى المستشفى منذ أيام ..كادت أن تدهسه سيارة وهو يعبر الشارع كالمسطول .. لا أحد يعرف ما جرى لعقله».

لم أقف لأتبين كلمات الصبى الذى أخذ يصرخ من خلفى :

« الأهرام يا أفندى .. الأهرام يا عالم اليوم».

***

إنسان متحضر

كان جالساً فى حجرته على مقعده الوثير مرتدياً ملابس البيت ، تحيطه جدران عالية من أمامِه ومن خلفهِ باتساع المكان ، تتناثر فوق سطحها صور فوتوغرافية ملونة فى مساحات متناسبة تعطى تناسقا ظاهريا مع ذلك الارتفاع فُتدنيهِ قليلاً من النظر. ظل ينظر إلى تلك الصور ويديم النظر كأنه يراها لأول مرة أو ربما ليتثبت من ملامحها اليوم وقد إختلفت عليها السنون. هو فى الحقيقة لم يكن ينظر إليها ، بل وقعت عيناه على الحائط أمامه بلا ارادة واتجهتا لما تألفان من قديم .. أما عقله فلم يكن يتابع نظره إنما كان قابعاً فى فتور ينافس الزمن.

مضى وقت على جلسته تلك لا يمكن حسابه ، فهو بالنظر بضعة فى الزمان وهو بالعقل طويل ثقيل.. نهض دون مبالاة ، أدار مفتاح الراديو الفخم القائم فوق طاولة بديعة الصنعة مطعمة بالصدف مفارشها زاهية .. أتى إليه الصوت من مكان بعيد ناقلاً من أشتات الأرض أحداثاً مختلفات متناقضات .. الحروب المشتعلة فى شرقها ، مؤتمرات السلام فى غربها .. مجاعات لازالت تتسع دوائرها، أوبئة تلاحقها ، مهرجانات للذكرى ، معارض للفن ، اكتشافات العلم الحديث تتوالى .. الدين والضمير ! أصاب عقل الرجل غثيان فامتدت يده مسرعة تُخرس هذا الصوت الخادع ذا الألف نغمة فى اختلال ونشاز.

عاد إلى جلسته ثانية ، إلى الحائط المتعالى التصقت عيناه ، مرة أخرى مضى وقت، مر قت فى ذاكرته كتبه المتراصة فى مكتبته الزاخرة لم يمسسها منذ زمن.. نهض نحوها كاد أن يصبح أحدها بين يديه لولا أن أفزعته أسماؤها بحيرة جديدة..تهافت الفلاسفة ، تهافت التهافت ، الدين أفيون الشعوب ، عقائد المفكرين ، الوجودية مذهب انسانى ، الديمقراطية فى حياة الشعوب ، الشعر الحر ، دعوى الشعر الحر ، نظرية الالتزام فى الأدب ، اللامعقول..

تثاقل الى جلسته مرة ثالثة بفتور مُضاعف .. خايلته خِزانة الأفلام الممتلئة باحدث ما أنتجته السينما ، ألعاب الفيديو والكمبيوتر المتراصة تنتظر أمره فتتحرك ناطقة مشاركة .. لكنه صمت عن أخيلته نافراً ، لم يتحرك.

بدأ علو الجدران يعذبه ويغضبه فحدثته نفسه بالخروج ..

نهض واقفاً تتلمس أصابعه أزرار قميصه .. ظل واقفاً ، أصابعه مثبتة فوق صدره ، لحظات ثقيلة قاتمة ، عيناه تجوبان المكان يتحرك فى صدره الخوف والفزع والضياع أوشك أن يصرخ مستنجداً ، لكن علو الجدران أدركه فتهاوىّ على مقعده الوثير، عيناه من جديد تتجهان نحو الحائط تنظران بغير إرادته إلى ما تألفانه من قديم ، عقله يبحث عن فتور ينافس أى زمن.

***

سر اللامعقول

الأمطار تهطل غزيرة ، الموج يصطخب عنيفا ، النهار لا تعرف ساعته وقد تكاثف حول شمسه سحاب ثقيل ، أشجار الطريق قارب الريح بين فروعها فأحنت هاماتها لسطوة الشتاء. كانت تكفى الأمطار نظرة عينيها الجميلتين فيتوقف هطولها وتحفظ للسماء صفوها ، الموج يكفيه انسياب شعرها فى نعومة وسلام فيهدأ ويسترسل حانياً عطوفاً ، الشمس يكفيها سطوع جبينها فتنفض عنها السحاب وتُعلن عن نهار ، الريح يدبر إلا من نسائم تلائم أنفها وأعطافها، فتشمخ الأشجار بزهو الربيع . لكن شيئاً لم يعبأ لها ، ربما غفلوا عنها وتركوها وحيدة لنفسها ، ربما يعرفون عنها ما لا أعرف .. لا بد أن فى الأمر سرا.

اقتربتُ منها فى هدوء جلستُ إلى جوارها أتأملها منبهراً بجمالها وهى ساكنة صامتة كأنها تنصت لحديث خفى.. قلت بصوت خافت :

ـ الجو اليوم غائم .. لم ينتبه لوجودك و إلا لزين السماء بشمسه.

قالت بعد حين :

ـ إنه الشتاء.

كانت نغمات صوتها قادرة أن تبدل صخب الكون إلى لحن بديع تنعم به الآذان، لكن الصخب يتزايد ، البرق والرعد يتجاوبان كأنها ذكّرت الشتاء بسطوته .. أم أنه سرها ؟

قلت محاولا استمالة خواطرها ربما أفسحت عن مكنون نفسها:

ـ يكفى جمالك ليقصر الزمان نفسه على ربيع متصل.

نظرت إلىّ نظرة ساهمة حزينة ، قالت :

ـ إذا كان حقا يهتم بى فقد رأى الحقيقة واهتز بها ، لم يفتنه جمال ظاهرى مثلك. بدأ يأسرنى غموض حديثها، فقلت متحديا:

ـ لست مخدوعا فيك ... رقتك تلك ، أنفاسك الدافئة الحانية أعظم دليل.

قالت وهى ساهمة :

ـ رقتى .. حنانى.

تملكتنى الحيرة فقلت لها :

ـ لم هذا اليأس وأنت أجمل من رأيت.

قالت :

ـ أنت لاترى الحقيقة .. لن تفهم مهما حاولت أن أفسر لك ، ما حولك لا ينخدع كما تنخدع أنت فيعكس ما تراه من قسوة وعنف.

قلت :

ـ هل أفهم أن الحياة صرعت أمانيك فأفقدتك الرقة وحولتك رمزاً لقسوة الشتاء؟

قالت :

ـ أنت لا تفهم غير ظاهر الحديث ، لا تنظر لغير ما تشهده عيناك لكن الحقيقة لن تفهمها ولو قلتها لك .. لن يفهمها أحد.

سكتُ ، كلى لهفة أن تستكمل حديثها .. قالت مترددة :

ـ هل ستفهم أيها الغريب أنى أمُ أزهقت طفلها الحياة .

وكأنها فتحت أمامى خزائن جهنم فما سمعته كان زعيق الشياطين وما رأيته كان مسخ إنسان.

* * *

قبلة المحب

كنت واقفاً أتأمل من حولى باستغراق عميق ، أحياناً يبدو الناس كأن الزمن توقف بهم ودعاك وحدك للنظر فيهم باطمئنان عجيب ، كأنك فى المدينة المسحورة التى توقفت فيها الحركة إلى أن يقبّل المحبوب أميرته فتعاود الحياة حركتها ويدور الزمن.

لكنّ للتماثيل أحياناً من صراحة التعبير وعمقه ما ليس لبعض الأحياء ، خاصة لو تشكلت بأنامل موهوبة من السماء .. أو هذا ما أوحى به وجه برز من بين الوجوه الكثيرة التى حجب بعضها بعضا . فهو يوقظ اعجابك بطريق خفى يلاحق طريق النظر وقد يسبقه ، فما أن تتفحصه فى تساؤل المندهش حتى تطل من العينين إشراقة وبسمة وذكاء .. وتبتسم للوجه بابتهاج لايسعك أن تخلطه بتساؤل .. اذ فيهما كل جواب..

ظللت عالقاً بصرى بعينيها أحاورهما فى خفاء ، فلا تملان الحوار وتنشدان المزيد ، لوميض الذكاء فعل السحر فى نفسى ، قوة طاغية فى شفتيها فتنتنى وألهبت اعجابى وأثارت دمى وأسرتنى فكدت أندفع نحوها ألثمها لثمة الحياة.

يبدو أن الواقف إلى جوارها يمثل أباها وتلك أيضاً أمها فهما ينظران إليها بفخر وحرص ، أما الجمع من حولها فغريب لأنه ينظر إليها كما أنظر أنا فى تلهفٍ واشتياق . لم هى بعيدة ياترى يفصلها عنى زحام من الوجوه ؟ كان قربها أحدّ للهفة وأخفّ على مشتاق.

بدا لى أنها تبتسم كلما أمعنت فيها النظر ، ابتسامة واضحة ليس فيها شك ، أم أنها من وحى الخيال ، جفلت ابتسامتى لتساؤلى فوجمتْ هى قليلا وفى عينيها

استفسار كأنها تدرك أن بيني وبينها حوارا .. أشحت عنها بوجهي عسى أن أبددها من وهمي ان كانت خيالاً.

مضتْ دقيقتان شعرت بعدهما بيد تمسك بذراعي وتقودني لخارج المكان ، فتطلعت لصاحب اليد في وجلٍ أتبين حقيقته فوجدتها هي .. يردد لسانها : « ماذا حدث ؟ ما الذي باعد بيننا ؟ أسرع فقد سبقنا أبواي...».

وتحركت الحياة ودار الزمن دون انتظار لقبلة محب.

* * *

خطان

بوجه ملتهب بحمى الغضب تنفر عروقه من جبهته تتقدُ عيناه بشرر ، صرخ سائق الأتوبيس ، شعر رأسه يكاد يتطاير من حدة الصراخ.

ـ أيها الوغد كيف تجرؤ على اللعب بأرواح الناس ، كدت تصطدم بى ويتحول الأمر إلى كارثة لمجرد تحدٍ أهوج .. هل نحن فى سباق حتى تتهاون إلى هذه الدرجة من الرعونة والطيش .. لكننى سوف ألقنك درسا على كل حال.

هبط من مقعده إلى الشارع ، سائق الأتوبيس الآخر ، أوقف سيارته فى وسط الشارع ، نزل منها مندفعاً لايقل هياجاً وشراسة زاده التهديد تفززاً وعدواناً، تدافع الركاب للمحاجزة بينهما فظل كل منهما يتهدد ويتوعد ويدفع الناس من حوله دفعاً محاولاً الوصول إلى الآخر ، اختفى السائق الأول لحظة تحت كرسيه ثم ظهر قابضا على قطعة حديد مستعداً لشج رأس زميله اذا واتته الفرصة.

تمكن الناس بعد قليل من تهدئة الموقف وإعادة كل منهما إلى عربته وإن ظل كلاهما يهدد ويتوعد وهو مندفع فى طريقه المرسوم.

استمر السائق الأول يصيح فيمن حوله:

ـ أرأيتم كيف استهان بأرواح الناس .. كان يمكن أن يتسبب فى كارثة والله لن أتركه يفلت..

رد عليه أحد الواقفين لجانبه بدا أنه يعرفه :

ـ لاتضايق نفسك يا أسطى ابراهيم .. كلنا يعرف اندفاعه وجنونه وهى ليست المرة الأولى .. انتبه أنت لطريقك يفتح الله عليك ويعود بك لأولادك سالماً.

انتبه الأسطى ابراهيم قليلاً من غيظه ، بدأ يهدأ نبضه وتلين جبهته وتختفى من عينيه شرارات الغضب ، سُر محدثه لهذا التأثير الذى أحدثته كلماته فاستأنف يحدثه كأنه تذكر شيئاً.

ـ أنسيتنى يا رجل أن أسألك عن إبنك الصغير كيف حاله هل ذهبت به إلى المستشفى كما نصحك الطبيب؟

كأنه أمسك بعصا سحرية وحركها فى الهواء فهرب شيطان الغضب من جسد الأسطى ابراهيم ، أو هى تعويذه رددها نزعت من الأخير أسهم الغيظ ، فقد هدأ الوجه تماما وسكنت الملامح وانتشر فى العينين احساس جارف بعطف غير مفهوم ،الصوت الذى هدد وتوعد فى حشرجه كريهة اهتز واضطرب وهو يقول:

ـ نعم .. الطبيبُ مصّر على إجراء الجراحة .. لو أن الأمر بيدى لتمنيت ما به لنفسى ويشفى هو من علته.

التفت إليه كل من سمعه فى عيونهم دهشة أن يكون هو نفس الرجل الذى ارتّجت بصراخه نوافذ العربة وقبضت يده على الحديد ، يوشك أن يرتكب جُرماً، تحولت دهشتهم إلى حيرة بالغة أوشكت أن تمحو من ذاكرتهم صورته السابقة وهم يتأملون من عينيه أثناء حديثه خطين من الدموع.

***

ملك الأحلام ..
وحقيقة واحدة

نظرتُ فى وجهه فرأيتُ خوفاً وقلقاً كأنما إستُؤمن على شئ فضيعه ، قيمة ما ضاع من بين يديه فى أمانه وأمانته ، نظر هو إلىّ مستجدياً تنطق عيناه بالرجاء أن أهبه طمأنينة قدر جعلته دائماً يتطلع فى أمان وثقة .. تُرى ماذا أبدله وحمله أن يفرط فى أمانة الأقدار ، ويتحول إلى إنسان مثلى يستجديه وقد كان بالأمس يعطف عليه تارة أو يحرمه أخرى ؟ سألته متلطفاً : « من أنت ؟ يُخيل إلىّ أنى أعرفك .. مجرد شعور وان كنت على يقين أنى لم أقابلك من قبل ، لِمَ تنظر إلىّ بهذا الرجاء؟»

أجابنى وهو يلتفت قلقاً كأنما يخشى أن يكُتشف أمره: « شعورك صادق ، لايوجد إنسان لايشعر بمعرفتى ، لكننى لم أقابل أحداً إلا أنت ، ربما يؤكد ذلك رجائى عندك ، بيدك وحدك أن تعيد إلىّ أمانى وتجنبنى عبث الأقدار بمصيرى».

بدا كأن الأمر هام ، فالبحر لايضطرب دون سبب من قوة ريح ، الأرض لاتهتز بغير ضغوط ترتفع وتنخفض ،كل ما يثبته الزمن بدورانه المستمر لاينقضه سوى استثناء مقصود .. لكنني شعرت ببعض القلق ربما اختلط بخوف فقوة الرجاء منه تعنى قيمة الشئ الذى يطلبه عندى ، لو كان شيئاً هيناً ضئيلاً ما نبض الخوف من قلبه وما تملكته خشية أن يرفض رجاؤه ، بدأ الحذر يدب فى نفسى وأنا أسأله : « يبدو أنك تبالغ فى قوة أثرى على الأشياء أو أنك لم تقصد الجهة المنوطة برجائك».بدأ يتحول قليل من خوفه إلى غضب مستتر وهو يقول:

«قدرت أن صدق شعورك وعمق يقينك يجعلك تدرك ما أنا فيه من حرج دون أن تحاول أن تحيرنى ، أنت تعرف مرادى فلم تعبث بمصيرى ومصائر كثيرين من بنى جنسك؟» شعرت بأن الغضب بدأ يدب فى نفسى أنا ، هو يتهمنى بأبعد ما يكون عن ضميرى فضلاً عن قدرى ومقدرتى المحدودة ، سألته: « لمَ لا تفصح عن مرادك وتتجنب مشقة الجدل ، كيف أعرف ما تريد ولم أقابلك إلا فى هذه اللحظة مهما شعرت بغير ذلك؟»

أجاب متردداً : «عجيب أمر بنى البشر كثيرى النسيان ، مهما حملت لهم من ورود الأحلام أو فواجع الأوهام لا يعترفون لك بفضل ولا يشكرون لك قدرا.. ويرددون انها هى أحلام».

سألته : « ما يقلقك ويخيفك إلى هذا الحد . أليست تلك طبيعة الأشياء ؟ ما اعتراضك ؟ كيف يكون بيدى أمانك ؟ من أكون حتى أجنبك عبث الأقدار بمصيرك .. وأنت .. من أنت .. ملك الأحلام ؟ تقضى بما تشاء فيرى الرائى ما توحيه سواء أعجبه أو أرهبه يتحول الفكر بسحرك إلى إرادة فاعلة».

قال وقد بدأ يصدق جهلى بمطلبه وأننى لا أعابثه مصيره وأمانته : « يبدو أنك ارتكبت فعلتك دون وعى بما سيتبعها من أثر هائل على عالمى وعالمك .. ما يدهشنى أن يستطيع انسان ما استطعت ، ومن غيب الزمان لم يقدر عليه بنى بشر، بدأت أصدق أن ذلك استثناء مقصود ، هل تقبل أن تنقض دأب الزمن وتحيرنى بلاسبب .. وبلا علم؟ أرجوك أن تنتبه لما أنت مقبل عليه ، صدقنى ليس أمانى وحدى وليس مصيرى فقط هو المقصود ، كثير سوف يحدث لا تدركه ولن يدركه مخلوق».

ظللت صامتاً أحاول مراجعة النفس فيما فعلت مقتفيا أثر العمر ، أجهد الذاكرة فى تلمس خطأ أو ظلم مقصود ، ثم قلت له : « إننى لم أسبب أذى لأحد عن قصد ، لا أعتقد أن لدى تلك المقدرة ، بالطبع ليس لى سلطان على الغيب ، لكننى لا أرى للظلم قاعدة فيما أسلكه من سبيل حياة ..هل تحسبنى مسئولا عما لا أعرفه أو لا أقصده؟».

ظهر عليه الاستغراب والدهشة ، هل يعقل أن تصل بانسان غفلته إلى هذا الحد ـ هكذا تساءل ـ لو يعلم هذا الانسان ما سببه من اضطراب وخلط بفعلته ، لو أنه فقط يقتنع بأن ما اقترفته يداه ـ بقصد أو بدون قصد ـ سوف يحرم الجميع من راحة استقرار السنن ومنوال الزمن ؟ لو يرى هذا الساذج إلى أى جهة ضلت قدماه؟

شعر بالشفقة والرحمة عليه كلما تداعت التساؤلات أمامه وتدفق المستقبل بصوره ، قرر أن يوجه إلى هذا الانسان أمرا نهائياً لارجعة فيه ينقذه به من هول فعلته وينقذه هو مما سيصير إليه لو استكان لضعفه وجهالته ، ليكن له دور فى حفظ عالم غير عالمه لاينتمى إليه وان يكن دوراً غير مقصود ، قال له بصيغة فيها من التهديد ما فيها من الرجاء ، فيها من التحذير ما فيها من الاستعطاف واضعاً فى كلماته كل ما يعانيه وما يعنيه قال :

ـ أيها الانسان رد إلىّ حلماً تريد أن تجعله حقيقة .

وفهمت ما كان يعنيه وما يعانيه.

***

أوانى مكسورة

- ١ -

الفتاة لايتعدى عمرها عشر سنوات وإن كان وجهها ينطق بزمن بعيد، الرجل جلس إلى الأبد فوق كرسى بعجل أسلم ليديه حركته . يمرق بين صفوف السيارات المتراصة فى الموقف المكتظ لينتهى إلى مدخل الشارع فى أمان، فى لحظة تنغرس الفتاة أمامه طاوية الشارع فى لمح البصر بعد أن جلجلت فى أذنها صرخته: « أنت يا بنت الـ ....».

أخذت ترمقه ، تنظر لقبضته فى وجل .. الزمن العميق فى وجهها ينحل إلى لحظات خوف وشقاء.

ـ نعم يا أبى سمعت نداءك.

ـ سمعت ندائى أيتها الشيطانة بعد أن ذهب فيه صوتى .. أين كنت منذ الصباح الباكر ؟

ـ هنالك بناصية الشارع أوشكت على ..

ـ ما الذى يقف بك هنالك .. أتنتظرى من الناس أن يقبلوا عليك وأنت متوارية هكذا فى هذا الركن الخرب ؟ لم لا تجوبين الشوارع كلها صياحاً .. ماذا تبقى معك من الخمسين نسخة التى سلمتها لك؟

ـ ثلاث أو أربع فقط.

ـ ماذا تقولين يا شقية ، تحت إبطك ما يزيد عن ثلاثين ، لن تتعلمى العد أبداً وفى رأسك هذه النفاية ، خذى هذه عشرين أخرى ، إئتينى بثمنهم جميعاً بعد ساعة واحدة وإلا فلن تطعمى لقمة طوال اليوم ، أريد أن أسمع صوتك فى

موقفى .. يالّلعنة التى أصابتنى بكم ، راقبى الشيطان الآخر حتى لايترك موقعه وينصرف ، أو لتصحبيه للجحيم لا أرانى الله وجهيكما ، ألا زلت واقفة تحملقين فىّ ، هل جدّ فى وجهى جديد عليك؟

ما أن سمعت الفتاة الأمر بالذهاب حتى اندفعت بأسرع مما أتت وهى تصيح فى عصبية : « أهرام .. أخبار .. جمهورية».

-٢-

إلى جوار أحد الأكشاك الخشبية المنتشرة فى الشارع الرئيسى انزوت الفتاة تراقب من حولها فى قلق وخشية أن يكون قد اقتفى أثرها أحد. أخذت تحصى نسخ الجرائد المتجمعة بين يديها فوجدتها عشرين نسخة فقط .. يا للرجل الخبيث إنه يستغل جهلها بالعد ـ كما يظن ـ فيوحى إليها بأكثر مما تتسلمه منه بالفعل ، ليعطى لنفسه حق إيذائها آخر النهار أو تلجأ للشحاذة تستكمل بها المنقوص مما فرضه عليها ولاتسلم أبدا من عقاب ، فلا هو يقنع بما تجبيه ويقر به ولاهى تعترف أمامه بأنه يغالطها العد والحساب وأنها تعرف الفرق بين العشرين والخمسين خوفا من أن تقع الطامة ويطردها بغير رجعة كما يهددها دائما ، بينما هى تحصى نقودها المدسوسة فى خفايا سروالها تذكرت أنه أمرها بمراقبة أخيها الأصغر، لمع فى ذهنها أنه ربما أوصاه أيضا بمراقبتها فرفعت بصرها بخوف ، تطلعت إلى الطريق ثم عادت إليها الطمأنينة بمأمنها .. لم تكن تعرف غير هذا الشارع الرئيسى وبضعة شوارع تتفرع منه إلى حيث لاتعلم ، أما حيث تنام فيصحبها إلى هنالك أبوها مع أخيها دون أن تفقه لم هذه المسافة الشاسعة بين مستقرها وموقف السيارات . هذا ما كان يفزعها إذا طردها كما فعل مع أخيها الأكبر ، ألاتعرف لها

طريقا فتضل ، أو تسقط فى الترعة المجاورة لا يُعرف لها قرار. إن أخيها المطرود كان قوياً كبيراً ومع ذلك رجاه دون جدوى أن يبقيه ، قال فى قسوة إن الحجرة قد ضاقت بهم وأنه كبر بالقدر الذى يكفيه .. أخذت تتذكر كم كان عمره وقتها.. كان خمسة عشر أو ستة عشر . قطع تفكيرها مرور سيدة أمامها تدفع عربة تحوى رضيعا .. قالت فى سرها وهى تنهض فى حماس : « على الأقل لدى عشر سنوات وليس بضعة اشهر».

ـ ٣ ـ

اقتربت الفتاة من أخيها المتوارى خلف أحد المارة فلاحظت أنه يلهث وإن حاول إخفاء ذلك قدر مستطاعه ، ولما التفت إليها صاح فيها كأنه كان ينتظرها:

ـ اياك أن تقتربى منى ، سأخبره انك لازلت تضربيننى والويل لك.

توقفت على بعد خطوة منه ، كان فى نيتها أن تسر له بأمر لكنها تراجعت ، قال لها وهو مضطرب:

ـ لن أخبره أنى رأيتك هناك إلى جوار الكشك تعبثين بالصحف و .. وأن معك نقودا كثيرة ، نعم رأيتك تخرجينها من ملابسك من حيث لايعرف هو كيف يستخرجها ، أما إذا أخبرته أنى لعبت الكرة فى الصباح فلن تسلمى منى.

ارتبكت الفتاة .. لقد كشف سرها وسيخبر أباه سواء أفشت أمره أو كتمته، إنه قد ينسى كل شئ ثم بنظرة من عينيه القاهرتين يفوح به .. يا للهول ماذا ستفعل ، سوف ينهار كل مادبرت له .. حاولت أن تحتال عليه فقالت :

ـ هذه النقود التى رأيتها ليست ملكى .. لقد كنت ذاهبة لشراء علبه سجائر لرجل ضرير.

قال لها:

ـ أنتي كاذبة .. كنتِ تجلسين على الرصيف ، كما إنكِ لم تبيعى كل حصتكِ حتى الآن.

قالت تحاول معه من جديد :

ـ لقد كنت أنوى شراء بعض الحلوى لنا .. نأكلها سويا دون أن يعلم .. لكنك تصر أن تحرمنا منها.

رنا إليها بين النفى والقبول ، سرّه منظر الحلوى بين يديه ،طعمها على شفتيه ثم اقشعرت ملامحه فجأة وأشار بيده المرتعشة خلفها وصرخ :

ـ ويل لنا ، لمحنا من بعيد ، ها هو يسرع نحونا.

***

ـ ٤ ـ

أطبق عليهما الرجل بعينيه قبل قبضتيه ثم انهال فوق رأسيهما ضرباً ولطماً وهو يصرخ فيهما سباً ولعناً والمارة يعبرونهم بغير مبالاة .. يبدو أن ذلك أمر مألوف. بعد أن هدأت ثورته عاد إليه جموده وصرامته ، نظر إلى الصبى تارة وإلى الفتاة أخرى وهما يبادلانه جموده ، تلاشى إحساسهما بآلام الضرب كأن لم يكن..قال الصبى وقد لمح تهديداً فى نظرة أبيه:

ـ هى التى كانت غافلة عما بيدها منهمكة فى إحصاء نقودها .. معها نقودا كثيرة يا أبى.

نظر إليها الرجل نظرة فاحصة وقال:

ـ كنت تحصين ماذا ؟ هل تعرفين العد يا شقية .. ويل لك ، من اليوم لن تغيبى عن عينى ، سأبقيك معى بين السيارات ، هو فقط الذى سيوزع الجرائد إياك أن ألمحك جالسة أو مرتكنة على جدار ، سألهب خديك بكفى هذين.

اقترب منها وهى تنظر فى هلع إليه ، توقفت أعضاؤها عن الحركة .. ثم فى لحظة خاطفة أسلمت ساقيها لقوة خافية انطلقت بها إلى الشارع البعيد .. هى نفسها لم تع ما تفعله بنفسها .. أخذت تعدو وتعدو ووجه والدها البغيض ينسيها أى شعور بالتعب فلا تجرؤ على النظر وراءها .. حتى كلت رئتاها وقدماها فتوقفت كما تحركت بغير ارادة ظاهرة .وجدت من حولها قوما كثيرين يروحون ويجيئون كل ذاهل عن الآخر مشغول بأمر مجهول ، من الميدان الواسع تترامى أمام عينيها شوارع كثيرة متفرقة . وتمتد خطوط الترام متفرعة إلى حيث لاتعلم.

لم تلتفت إلى الوراء قط كأنها ولدت فى هذه اللحظة ، ظلت تسير على غير هدى ، ان كانت أحاسيسها فى أمان ، لا تترقب فى أية لحظة كفاً هاوية لذراع مجهولة أسلمها صاحبها للضياع دون أن يلتفت إلى حيث انتهت.

***

انتفاضة ... للحرية

أولاً

الولد صغير عمره ستة أعوام ينتقل بصره من وجه أبيه لوجه أمه كلما تحدث أحدهما ، ينصت لحديثهما ، لايكاد يفهم منه شيئا . ربما أدرك أهمية الحديث بالنظر فى ملامحهما . قال الأب :

ـ لاتظنى أنى أقل وطنية من أى منهم ، لكن علينا نحن مسئولية استمرار شعبنا مهما كانت أحوال المعيشة غير مهيئة .. مهمتنا حفظ الحياة لأولادنا وهى ليست مهمة هينة .. أن تظل جذورنا ممتدة فى تلك الأرض مهما حاول أعداؤنا اقتلاعنا منها.

قالت الأم:

ـ لكنهم يدفعون حياتهم ثمنا لكفاحهم ضد عدو لايعبأ بالمبادئ والقيم ، تلك أسمى مراتب الكفاح ، بينما نحن نرضى بالهوان لنكفل لأولادنا لقمة عيش واستمرار حياة ، ما يدريك أنهم سيسمحون لنا بها بعد قليل؟

قال الأب :

ـ إذا كان عدونا لايعبأ بالقيم ليؤكد سيطرته ويضمن لنفسه الاستمرار والغلبة فعلينا ألا ننظر إلى ما نحن فيه فنصفه بالهوان .. بل هو التضحية ليظل لشعبنا أولاده وأحفاده .. إننى مقتنع بأن ما أفعله من الحفاظ على أولادى وتربيتهم لا يقل وطنية عما يفعله فدائى يقدم روحه فداء وطنه.

قالت الأم :

ـ أرجو أن يفهم أولادك ذلك حين يكبروا ولا يتهمونك بحب الحياة .

وظل الولد متطلعا فى وجه أبيه بالرغم من أن الحديث انتقل إلى أمه.

ثانيـــاً

الولد لايزال صغيرا ، عمره إثنا عشر عاماً ، حديث الأب والأم لم ينقطع.

قال الأب:

ـ الأمور تزداد سوءا كل يوم، القيود تتثاقل ، ما كان مسموحا به الأمس أصبح ممنوعا اليوم ومن يدرى غدا ما يكون .. الخوف يزداد فى القلوب ، الكراهية تبنى لنفسها قوة انفجار هائلة.

قالت الأم:

ـ حاولت دائما أن أبين لك قيمة الحرية وما تضمنه للحياة من ارتقاء حتى للقمة العيش كأبسط ما تكون ، أنه من أجلها تهون كل التضحيات ، لكنك أصررت أن مسئوليتك فى تربية أولادك هامة بنفس القدر .. لقد انضم معظم رجال عائلتى للمقاومة ، لينفك أسرنا ونشعر بآدميتنا بينما استمسكت أنت بتجارتك ، كلما زاد الاستسلام ثقلت القيود.

قال الأب:

ـ ليس هذا موقفى وحدى ، بل هو موقف كثير من أهلينا ، لولاه ما كبر لنا ولد ولا تأسس بيت ولانمحى اسم شعبنا من الوجود .. هذه رسالتى.

قالت الأم:

ـ على الأقل إقتصر فى معاملاتك على مواطنيك ولا تتاجر مع الأعداء.

قال الاب:

ـ استمرار العيش له أسبابه .. المعدة لا تفرق بين الأطعمة .. لكنها تميز جيداً معنى الخواء.

قالت الأم:

ـ هل تضمن الاستمرار مع كل هذا الخوف وتلك الكراهية؟

قال الأب:

ـ سوف أحاول ، قواعد العيش تحكم الجميع بالرغم من فروق القوة.

قالت الأم:

ـ لست متأكدة إن كنت على صواب ، بالرغم من أننا لا نزال نعيش ، إلا أن عيشنا ليس هو آخر طموحي في الحياة.

قال الأب:

ـ نحن نضحي بحياتنا كالآخرين تماما ولكن بشكل مختلف .. ولنفس الهدف.

كان الولد ينصت ويتابع الحديث ، يشعر أن هناك خلافاً من طريقة الحوار، يصعب عليه اكتشافه وفهمه .. كثير من الكلمات لم يعرف معناها .. حديث والديه يشغله بالرغم من معانيه الغامضة.

***

ثالثـــاً

الولد يكبر ، الحديث يمتد .. بعض المعانى فقط يدركها بيسر ،الكثير يعز عليه فهمه ، لكنه مشدود لمتابعة الحديث بقوة خافية.

قال الأب:

ـ أصبحوا يهدمون المنازل لأدنى شك فى أصحابها ، لم أر فى حياتى أياما أسود مما نحياها الآن .. لقد قصر المستقبل فى نظرى إلى بضع ساعات.

قالت الأم:

ـ بدأت تصدق بجدوى الكفاح والنضال من أجل الحرية.

قال الأب:

ـ من يجدون عنده أصغر قطعة من السلاح يعتقلونه ويلقون به فى السجن دون محاكمة ويشردون أهله ويخربون داره .. أحيانا تعمى علىّ الرؤية فأفسر موقفى بالخنوع والجبن ، مع أننى كنت دائما واضح الهدف .. أن أحفظ تواجدنا على هذه الأرض مهما كان الثمن.

قالت الأم:

ـ لكن وجودنا كأمة لم يتحسن قيد شعرة .. لم نحقق لأنفسنا أى هدف قومى وقد مرت عشرات السنين.

قال الأب:

ـ هل حققته الرصاصات؟

قالت الأم:

ـ على الأقل يستيقن الجميع بما فيهم أعداؤنا أننا لم نمس جثة لاحراك فيها بالرغم من كل المحاولات.

قال الأب:

ـ قد يكون فى الجسد الساكن من الحركة ما يخفى على أذكى العيون وما يكفى لتنطلق الحياة فاعلة محركة ، خير من بعض الحركات العشواء التى يعرف أى ساذج أنه لاطائل منها . ما أفعله بيقين هو المحافظة على تلك القوة الكامنة.

قالت الأم:

ـ هل سنرى فى حياتنا أثرا لما تقول .. نحن لانشعر حتى الآن بغير الذل والمهانة.

قال الأب:

ـ نحن ندفع الثمن لشئ نعرف قيمته .. لايهم أن نناله فى حياتنا ، يكفينا أننا نمتلك ثمنه لندفعه فى كبرياء.

إنشغل فكر الولد وبدأ النوم يهجر لياليه.

أخيراً

كبر الولد ، زاد عمره .. أصبح لاينصت للحديث ، القوة لم تعد فى اذنيه ، ولا فى فم أبويه ، الزمن لايمنحه ما كان وهو صغير .. إنه يريد أن يدفع ثمن شئ يعرف قيمته كى يمتلكه فى حياته ، لاتكفيه كبرياء المغبون ، سنن الوجود تسرى على الجميع وليس على الضعيف فحسب .. ليست المدرسة هى الهدف فى تلك اللحظة من الزمان وليس المتجر وليس أيضا الرصاص .. لا تهم الحركة العشواء..تهم الحركة الانسانية الهادفة .. ولو كانت الوقوف فى قلب شارع مزدحم بالسيارات ، مقيدا بالأغلال ينظر فى وجوه الجميع من كل دين وجنس يلقى عليهم سؤالا دون أن يحرك فمه بكلمة واحدة ، فهم جميعا يعرفونه ويعرفون إجابته عن يقين.

لم يكن الولد مهما كبر مشغول الفكر بتلك المعانى البعيدة .. لكن ما كان يفعله يوحى بالكثير ، تلك المعانى أقل ما فيه .. كان الولد يجمع الحجارة ويقذف بها مدرعات ومصفحات وعتاد قوة انسان القرن الحادى والعشرين ، لم يكن الولد وحده .. أبداً وما كان الحديث بين أبيه وأمه فقط.

***

صاحبة المعطف

أو .. اللا وعى

جلست أمامها دون أن أميزها ، لو لمحتها قبل مجلسى لابتعدت عن هذا المقعد، بل أظننى كنت سأتجنب تلك المركبة ربما كل مركبة لعدة أيام أراود فيها نفسى على النسيان . لكننى انتبهت للكرسى الفارغ وأسرعت إليه ثم استخرجت كتاباً كنت أطالعه واستأنفت مطالعته . لما رفعت عينى عن الصفحات وقد تنبهت لفكرة طارئة صادفنى وجهها . فى أقل من رجع الخاطر عرفته .. لقد طوت ذاكرتى عامين فى أقل من ثانية لتؤكد أن ما رأته فى مصادفة غريبة هو ما تراه الآن بكل يقين ، نفس العينين والشفتين والخدين والبشرة والشعر الأسود، نفس أنفاسها الدافئة ورائحتها الساحرة ، نفس يديها الرقيقتين خاليتين مما يشير لخطبة أو زواج .. إلا أنها بغير معطفها الأسود ذى الزرائر الذهبية الزاهية .غاص قلبى بين جنبى ، انعدمت قواى فما أقوى على فرار .التقت عيناها بعينى فابتسمت.. يا إلهى هل لا زالت تذكرنى ؟ فلم إذن إبتسمت ما أن نظرت إليها كأنها كانت تنتظر التفاتى نحوها ، شعرت بشفتى لا تجيبان ابتسامتها بل تجمدان عن أى حركة كأنما فقدت السيطرة عليهما .. حاولت أن أعاود انشغالى بالكتاب ، لكن حرارة نظرتها إلىّ انتقلت إلى رأسى ، تحسست فيها عاطفة ، لما نظرت إليها من جديد قالت وهى تبتسم :

ـ لا أظنك نسيتنى .

حاولت أن أخفى اضطرابى وترددى ، لقد لاحظت إذن اعجابى بها حين رأيتها أول مرة ، فلم صدتنى مُعنفة لما حاولت الحديث معها ، قد كانت تلك

فرصتنا الوحيدة للتعارف .. كيف زهدت فيها هذا الزهد مع أنى لازلت فى ذاكرتها ؟ قطعت استرسال خواطرى بقولها.

ـ كنت أتأملك يومها وأنت واقف على المحطة تلائم رمادية السماء ملبسك ، يوافق نظرتك كتمانها ، لم أصدق أنى قد أسرت نظرتك ، كان منتهى نظرك كما شعرت به شيئاً لاتراه !

أعادتنى تلك الكلمات إلى ذلك اليوم البعيد ، شعرت بما شعرت به وأنا أتأملها يومئذ فى شغف وقد بهرنى كل شئ فيها حتى معطفها الأسود .. استمرت تقول كأنها تتابع خواطرى :

ـ تمنيت لحظتها أن أجلس لجانبك ربما يشملنى احساسك بالوجود وأنا منك قريبة ، كنت أوقن أنك تستحوذ على سر الحياة.

تزايدت دهشتى منها ، كيف انقلب تمنيها إلى نفرة بعد قليل واستهجنت أن يبوح لسانى برجائها ، لكنها لم تعبأ بدهشة كما لم تعبأ بأمنية ، مضت تقول :

ـ شكرت الأقدار وقدمايَّ تريان قبل عينى أن لجوارك مقعدا شاغرا ، أسرعت فجلست ، أنفاسى تتلاحق كأنى مسوقة لأسر أبدى لا تقبل فيه دية و لا فداء لأنى راغبة فيه. نعم سمعتك تعرض علىّ أن أجلس لجوار النافذة وتهللت نفسى أن أصبحت جزءاً من ذلك الوجود الذى يشغلك. بدأت تقترب منى عيناك كما اقترب صوتك ، من عينيك تصرخ أناملك بالمشاركة. عرفت أن محطة نزولك تسبق محطتى فحزنت أن القدر سيسترد بعد قليل تلك المنحة فلا يسمح لنا بمرافقة أو محادثة ، لكن هل يخضع وجودك لقدر ؟ قلت لك إن وجودك سحرى، ها أنت لازلت تجلس لجانبى وقد مضت المركبة تاركة محطتك .. ربى لقد وهبتنى ما تمنيته .. إنه سيحدثنى ، سيرافقنى فى الطريق.. لقد نظر ليديَّ وعلم أنى غير مرتبطة ، سوف يسألنى ما أتمنى ألا أجيبه لأحد سواه ، كدت

أنزل فى محطة قادمة لأتعجل حديثك ، لكننى خشيت أن أكون واهمة فأجد نفسى وحيدة والترام بك يبتعد ، فآويت إلى الصبر. حتى أتت المحطة الأخيرة وأنت ساكن صامت لم تحدثنى ولم تسألني كأننى لم أكن سوى طيف خيال راودك ، فنظرتَه من بعيد ولم تعبأ له وكل ما تمنيتُه أنا محض سراب ، بحثتُ عنك إلى جانبى فلم أجدك ، لم أعرف كيف انسحبت من هذا المكان فلم أشعر بك ، أوشكت أن أكذب نفسى أنى كنت لجانبك من البداية أو أنى فى حلم . كيف اختفيت دون أن ألحظك .. أين هبطت بالله عليك ، ألم تكن موجودا فى الحقيقة ؟

أخيراً ذهب اضطرابى ، اطمأنت نفسى ، شعرت أن بى قوة هائلة على النهوض .. قلبى يدق بثبات ، لسانى يقول :

ـ كنت موجوداً فى الحقيقة .. أنتِ التى ذهبت مسرعة كأنما تفرين من عقاب.. لماذا ؟ قد كان لك معطف جميل.

شعرت بيد تهز كتفى بشدة وصوت مألوف يقول:

ـ ألن تقلع أبداً عن عادة النوم فى الترام.

***

ملك الأحلام ..

هل يسترد ما فقد

انطلق يعدو مارقاً فى الهواء كالرمح لاتكاد قدمه تلمس الأرض من فرط سرعته ، كلما انتهى به الطريق تحول إلى سواه ، كلما انقضى بعض الزمن وشعر بالتعب نظر بطرف عينه إلى الوراء ثم لا يلبث أن يندفع من جديد .. الناس يتولاهم الدهشة وهم يلحظونه مندفعا بكل طاقته ثم لا يجدون سبباً ظاهراً ، فلا أحد يجرى من خلفه يحاول اللحاق به ولا أحد يجرى من أمامه وهو يسعى إليه ، من يلحظ منهم التفاته للوراء أثناء جريه لايفسر إصراره على الاندفاع الا بالوهم والجنون . بعضهم ظن أنه يريد أن يلحق بقطار يقترب من المحطة لكنه تخطى بجريه موقع المحطة ، البعض تصوره يتجه لمكتب البريد قبل أن يغلق ، لكن عدوه لم ينته بمكتب البريد ، كلما مر على أحد من الناس راقبه فى فضول مقدراً سبب جريه ثم ينتهى كما انتهى تقدير من قبله بالوهم والجنون ، هو لايتوقف ولا يهدأ إلا حينما ينظر بطرف عينه إلى الوراء جزءاً من الثانية.

إلا فتاة كانت واقفة لمحته آتياً من بعيد أخذت تراقبه ، تنتظر مروره بها وتستعد، لم يكن دافعها الفضول ولابظنها القطار ومكتب البريد ، لم تنظر خلفه أو تتطلع أمامه .. عيناها تراقبانه هو ووجودها كله يترقبه .. فى عينيها روعة الحياة ووجهها منفعل بالفرحة .. تكوينها كله يهتز كلما اقترب منها كأنها تنتظر تلك اللحظة منذ مولدها سواء كانت تدرى أو لاتدرى.

ما أن مر بها حتى وجدت نفسها إلى جواره منطلقة بسرعته ولازالت تنظر إليه.. لم تهتم بموضع قدمها أو اتجاه عدوها . ولما أتت اللحظة التى يطرف فيها بعينه إلى الوراء تلاقى نظرها بنظره قالت وهو يستجمع قوة اندفاع جديدة :

ـ أثرت فى كل من شاهدك سؤالا لا يجاب..

رد عليها قائلا:

ـ لم يصلنى صوت أحدهم.

قالت متسائلة:

ـ كيف يصلك وأنت تجرى بتلك السرعة الفائقة؟

أجابها:

ـ كما يصلنى صوتك الآن فأميزه وأجاوبه

قالت تحاوره :

ـ ليس كل الناس على قدر سرعتك .. كما أنه غير واضح لهم سببها.

قال:

ـ لو وقفت لأفسر لكل من أمر به سبب عدوى لتحولت حركتى إلى سكون وتبدد ما أحاول الحفاظ عليه.

قالت:

ـ فلا سبيل لذلك إذن إلا بالعدو مثلك؟

أجابها:

ـ لو شئت أن أعرف سبب وقوفهم لتوقفت أسألهم.

سألته:

ـ هل مضى عليك زمن طويل وأنت تجرى؟

أجاب:

ـ نفس الزمن الذى مر عليك فى انتظارى .. العمر !

هى تلحظ انطلاقه من طريق إلى طريق تتبعه وتلازمه دون أن تتأخر عنه خطوة واحدة حتى جاءت اللحظة التى ينظر فيها إلى الوراء .. حين يستشعر بعض التعب قالت :

ـ لم لا تتوقف قليلا لتستريح وتلتقط أنفاسك .. ما الذى تخشاه وقد أصبحنا معا ؟

أجابها وهو يكتسب سرعته السابقة:

ـ أخشى أن يلحق بنا ، لقد أوشك عدة مرات أن يطبق علىّ لولا مزيدا من الجهد بذلته فى لحظات اليأس والتعب ..ما كنت لأصلك فى موعدى لو توقفت فى الطريق ولانتظرتنى عمرك بأكمله.

قالت:

ـ لكنك تمكنت من الوصول واستطعت أنا ملاحقتك ومساوقة سرعتك ، نحن الآن معا يمكننا أن نستريح ثم نمضى فى طريقنا كما نشاء.

قال:

ـ أرجوك لاتتخلفى عن سرعتى مهما حدث .. إذا توقفنا لحظة واحدة فسوف نفقد كل شئ.

ـ حتى ونحن معاً ؟

ـ نحن معاً لأنه لم يتمكن منى حتى هذه اللحظة ، أرجو ألا يفعل وأنت معى فسوف ينهى ذلك كل شئ.

ـ إننى لا أعرف من تقصده وما يمكن أن يفعله .. أليس أمرنا بيدنا؟

ـ أنت لاتعرفين سر عدوى والتفاتى ترقباً وحذراً ؟ لا تعرفين كيف التقينا معاً أو كيف سنمضى ونحقق غايتنا ؟ أنت حتى هذه اللحظة لم تعرفى من أقصده وأية قوة يمتلك؟

أجابته فى خوف:

ـ إننى حقا لا أعرفه .. ولا أرى من حولنا أحداً ، لن أظن بك الوهم أوالجنون كما يمكن لغيرى أن يفعل .. فقط أرجوك أن تفسر لى.

قال وهو يقترب منها حتى كادت أن تلتصق به فشعرت بحرارة صدقه وأصغت لوضوح نبضات قلبه التى تردد صداها فى أعماقها فآمنت لقوله:

ـ ربما لاترينه لأنه اقترب منا جداً ، يكاد يمسك بنا .. إنه ملك الأحلام يوشك أن يسترد منا ما فقد.

***

سر القيادة

-١-

قال القائد العام بوجه متجهم تنتشر من عينيه القسوة والشراسة فتنعكس فى وجوه المجتمعين :

ـ مضى عام على تلك الانتفاضة ولم نتقدم خطوة واحدة نحو إخمادها .. لقد ساء موقف دولتنا عالميا ، ساد الخوف بين أبناء شعبنا المكافح العريق .. مصداقية مؤسستنا تهتز فى النفوس ، أصبح من الأصدقاء من ينظر إلينا باللوم أحياناً وبالعطف أحياناً أخرى وهو أقسى من اللوم لمن يرتدى زينا.. كنا نؤكد دائما سطوتنا ونفوذنا فماذا حدث ؟ هل ضعف بأسنا أمام صبية لايتسلحون بغير الحجارة والزجاجات الحارقة..

حاول أحد الحضور أن يقاطعه فأشار إليه بيده أن يسكت واستمر:

ـ لن يتعلل أحدكم بغموض الأوامر فهى واضحة أو شروط الدفاع عن النفس فهى واسعة مؤهلة أو مستوى التسليح المطلوب فهو مطلق الدرجة .. التعليمات والتوجهات مؤيدة من أعلى سلطة فى الدولة لتخمدوا تلك الثورة بأى ثمن وفى أسرع وقت .. فماذا يمنعكم عن أداء واجبكم القتالى هذه المرة ؟ تحدث أيها الضابط ماذا كنت تريد قوله؟

قال الضابط المشار إليه وهو ينتقى كلماته بحذر :

ـ المسألة أكبر من أن تنهيها مواجهة مع الجماهير الهائجة ولو بالذخيرة الحية، أعقد من اعتقال البعض وتعذيبهم أو حتى قتلهم كعبرة وتهديد لغيرهم .. هى لهذا تحتاج لتدبير على مستوى عال.

تفحصه القائد بعمق حتى بدأ يحمر وجهه وسأله آمراً :

ـ ألا يجدر بك أن تصرح بما لديك بدلا من هذه المراوغة؟

قال الضابط مترددا:

ـ ليس من سبيل لاخماد تلك الانتفاضة إلا بتحطيم رؤوسها والقضاء عليها، ليست لدنيا إمكانيات تحديد قيادتها وانتزاع أسرارها فهذا موضوع يفوق اختصاصنا ، على السلطات العليا أن تتولاه.

قال القائد العام باهتمام:

ـ لقد اتخذت بالفعل تدابير هامة وسرية فى هذا الخصوص وجارى تنفيذها ومتابعة نتائجها ، سوف نصل قريبا لإجابة تلك الأسئلة عن القيادة التى تحرك أحداث المقاومة والشغب .. أين مقرها ؟ ما قوامها وطبيعة تنظيمها ؟ وغير ذلك من الأسئلة التى تحيرنا كما تحير كل واحد فيكم .. لكن هذا كله لايعطلكم عن أداء واجبكم ..مصيرى ومصيركم جميعاً مرهون بما نحققه من نتائج ، لابد أن يكون ذلك واضحاً وقاطعاً لدى كل فرد منا .

ـ٢ـ

المشهد جهنمي ، آلات التعذيب ووسائله متعددة ومتنوعة ، الكى بالنار ، نزع الأظافر ، الجلد والضرب بالسياط ، الحقن وما تحمله من أحدث اختراعات الكيمياء مما يحطم كل نظم المقاومة فى كائن بشرى ، الجلادون متفرقون يفترسون ضحاياهم بعيونهم وقلوبهم قبل أيديهم وآلاتهم ، الضابط المنتدب يشرف على أداء فرقته ويطمئن بنفسه على سير الاستجواب ، الضحايا أعمارهم تتذبذب حول العشرين لاتسعفهم ذاكرتهم بمسمى لتلك الكائنات التى تتشبه بالإنسان

ظاهراً وتحطم فيهم أى معنى للوجود .. سؤال مستمر يتردد على مسامع الجميع دون أن يحقق برجعه رضى للسائل أو المجيب .. ممن تصدر لكم أوامر التحرك والتمرد ؟ كيف تصلكم تعليمات الإضراب العام ؟ من المسئول عن إدارة حركة الانتفاضة؟ أين مقر القيادة السرية للحركة ؟ من يذكر إسماً واحداً سينجو من موت محقق من قبله عذاب أليم كما هو مذكور فى قرآنكم .

لا يسمع سوى صوت الصراخ ، لايتردد غير صدى الآهات المقهورة ، ثم تخفت الأصوات فجأة لتعطى الأوامر بايفاد مجموعة جديدة .

الضابط المنتدب لاتقنعه الاجابات المنتزعة من أحشاء ضحاياه .. تجربته علمته أن تكرار التعذيب والتفنن فيه حتما سينهى إليه قائمة الأسماء التى يريدها ، ينظر فيما هو محصل أمامه فلايجد غير عبارات مبهمة لاتكفيه ليحقق غايته ويعود لقيادته بأسماء الإدارة السرية للانتفاضة كما صدر أمر انتدابه لهذه المهمة الوطنية البالغة الأهمية ، مر الوقت والاجابات المبهمة أمامه تتكرر وتزداد كلما تكرر التعذيب وازدادت وسائله .. بدأ الضابط ينتبه إلى أن الأمر يخرج عن مألوفه، فإما هؤلاء الصبية من معدن غير إنسانى لم يختبره ولم يصادفه من قبل بالرغم من خبرته الهائلة أو أنهم يقولون الحقيقة التى يعرفونها وإن لم تكن ترضيه ولن ترضى بالقطّع هؤلاء الذين أوفدوه واثقين من نجاحه لما له من تاريخ مشرف فى أعمال مماثلة .. استعصى على ذهنه بكبريائه وغروره أن يقبل بأفول نجمه ونضوب مصادر وحيه ، فأخذ يفتش عن كل وسيلة يعرفها يمكنها أن تنتزع سراً من صدر بشر، ليؤكد لنفسه قدرته وبراعته ، لم يكن جواب ما سأل حينئذ غير روح أزهقت أو وعيى غاب عنه صاحبه ، ظلت قائمة الأسماء أمام بصره خالية ، تأكد لديه عن يقين أنه نزع من الأعماقِ ما حوته مهما كان خالياً مما ينتظر ويتمنى، فلايمكن لبشر أن يبقى فى داخله شيئا بعد أن تفنى ارادته .. بخبرته يعرف ذلك

جيداً ، وقبل أن يفكر فيما سيفعله تداركاً لهذا الموقف حاول من جديد وبكل طريقة ممكنة مع أفواج أخرى ومجموعات وافدة ، وما اختلف جواب سؤاله عما سبق سوى صرخات جديدة سمعها وأرواح أخرى اندفعت من أبدانها فارة من هول ما شاهدت ، الكل يردد نفس الاجابات المبهمة التى لن تطرى عبقريته ولن تمنحه ما تصوره من مكانة بين كبار قادته . انتهت المهلة المحددة لمهمته . كان عليه أن يتقدم بتقريره إلى الجهة التى كلفته فانكب على نفسه يصوغ نظريته.

-٣-

انعقد المجلس بكامل أعضائه ، اليوم وصلهم تقرير ضابطهم المنتدب الذى اختاروه بعناية فائقة لأداء تلك المهمة .. سيعرف كل فرد فى حكومتهم الآن أن مكانتهم لم تهتز لحظة ولن تهزها أبداً أية أحداث مهما بدا طيشها ونزقها .. لهم أن يطالبوا حينئذ بما يشاءون من اعتمادات وترقيات مهما تكلفت فسوف يتحقق لدولتهم على أيديهم من جديد الأمن والاستقرار كما وعدوا دائماً به ، فما أن تنكشف أمامهم الأسماء والعناوين حتى يتخذوا قرارهم بالإبادة السريعة والماحقة بكل وسائلها فتصبح الانتفاضة مجرد مزحة فيما بينهم ويرتد من توهموا بها حقاً ومصيراً إلى ما كانوا فيه من غفلة واستكانة.

تناول القائد العام المظروف الموضوع أمامه بثقة وفض غلافه قرأ:

« تقرير إلى القائد العام من الضابط المنتدب للمهمة ص ش ، المهمة أنجزت كأفضل ما يكون بالاستعانة بكل الوسائل الممكنة وتعاون الجميع .. نعم توجد قيادة سرية للانتفاضة ، قوامها كل فرد أمسك بحجر ، كلمة السر بينهم الحرية ومقرها حيثما وجُد القهر».

* * *

ختم الشمع

خرج من عند رئيس الشركة مختالاً من مديحه لأداء إدارته ، تأكد من فوزه بالترقية القادمة فشعر بالثقة والتطلع إلى مزيد ، سرت فى أنامله نشوة النجاح وفى رأسه وجسده فسار مرفوع الهامة تسيطر عليه فرحة غامرة.

كان عائداً إلى مكتبه وهو يتذكر كم تمنى فى نفسه طويلا أن يتألق هذا المنصب، ها هو قد أصبح فى متناوله ، إن هى إلاساعات ريثما يوقع القرار . تجاهل أثناء انشغاله فى الحديث لنفسه إبتسامة موظف صغير همّ بالوقوف لتحيته أثناء مروره به ، استكثر عليه أن يرغب فى مصافحته . لابد أن خبر الترقية قد ذاع فى الشركة وإلا فما علة التفات الجميع إليه باسمين معجبين ، حتى أن أحدهم نهض من خلفه مصراً على اللحاق به ومصافحته تاركاً عمله مهملاً وقته .. لابد من معاقبة أمثاله من المهملين المبددين لوقت العمل فى المجاملات الفارغة ، ابتسم فى داخله وهو يقول وإن كانت تلك المجاملة لى . خطر بباله أن يتوقف وينهر ذلك الموظف المصرّ على اللحاق به وينذره بالعقاب ليعطى صورة واضحة للجميع أن المدير العام الجديد لايعتد بالمديح . ذلك بعد أن يسمع منه بالطبع ما يريد قوله!

قبل أن يطيع خاطره بالتوقف ، لحقه صوت الموظف ينادى عليه:

ـ يا أستاذ فاضل .. يا ..

فقاطعه بغضب مفتعل :

ـ ماذا تريد ؟ لمّ تركت مكتبك .. لماذا لايراعى كل منكم ضميره ويؤدى ما كُلف به .. تترك ملفاتك وتقاريرك مهملة وتأتى لملاحقتى ..ماذا تريد ؟

تسَّمر الرجل فى مكانه ، جمدت ملامحه ، تردد قليلاً قبل أن يقول :

ـ يا سيدى ، سقط من أوراقك هذا المظروف .. لاحظت عليه عبارة سرى جداً ومختوم بختم الشمع فالتقطه بسرعة وجئت فى أثرك..

لمْ ينصت الأستاذ لبقية الحديث فقد انتفض قلبه فى صدره وهو يشهد دليل غفلته وسهوه وما كان يمكن أن يضيعه ضياعه .. ما كان أيسر أن يعبث ذو فضول بختم الشمع فيفضه ويكشف ما فيه ويتحول هو إلى التحقيق..

اتجه بصره بغير إرادته إلى ختم الشمع يتأكد من سلامته فلاحظ الموظف الصغير اضطرابه فقال له:

ـ إنه سليم تماما .. اطمئن ياسيدى ، لايزال للضمير قيمة فى النفوس لولاها ما أصاب أحد نجاحاً صغر أو كبر.

مضى الرجل لشأنه وترك الأستاذ فاضل فى مكانه ذاهلاً ، لم يعيده لحركته سوى صوت المطارق الضخمة آتياً من مصنع قريب.

***

منتهى الحب

قال لها وعيناه تتوهجان بوهج العاطفة :

ـ آمنتك على قلبى وهو أعز ما أملك ، استصفيتك أرقَّ أحاسيسى تسكن بسكنى روحكِ ، أفكارى أصقلها لتطمئن غلواء نفسكِ إذا أرهقتها تصاريف الزمن ، أمضيت يومى لم أركِ فيه سوى تلك اللحظة لأنكِ انطلقتِ من أعماقى الآن وقد كنتِ تسكنينها ، كأنما خُلقتِ لأحتويك ويهيئ القدرُ لحظات أرى فيها نفسى بعينى ثم تئوين إلىّ من جديد .. كلما تنفستُ نشدتُ لكِ أنفاس الحياة..

فما قيمة أنفاسى الآن وفيكِ رؤية ونظر إلا أن أرى من دعائى حقيقة ثابتة؟

استمر يقول وهو ينظر إليها بإعجاب وانبهار :

ـ كيف يسعى جمال الكون يجادلنى فيكِ وأنت من معالمه ؟ تنظر إلىّ الشمس متباهية فتلفتنى ، تظن أن سناءها غلب سناءكِ وأنا لم أرها إلا فى عينيك أنتِ ، تشغلنى النجوم ساعية آتية بسحرها وغموضها ، فهل عرفت كيف تشغلنى إلا بسعيك إلىّ فى خطو محير ؟ تفتنى عوالم الزهور بعبق ولون ومنظر وقد تخيرتك منذ الأزل رمزاً لفتنتها وبهائها ، فكيف كان سيدبر الوجود جمالاً يأسرنى مهما خلق من أكوان وبث من كائنات إذا لم يدبر وجودكِ ويجعله مثالاً للسكينة ، والحب يأمنه من له قلب كقلبى ويستصفيه حسن مشاعره ويقيه بأعز فكره ؟ قد كانت حكمته أن تكونى سره الذى يستقصى فى عز وكبرياء ، كأنك طاووس الكائنات الباحثة فى فحوى الجمال تأسرينهم وذلك منتهى أملهم.

ثم صمت وظل صامتاً زمناً تبدل فيه وهج عينيه بخفوت حزين .. ثم استأنف وهو ينظر فى أعماق كيانها:

ـ تمنيتُ لنفسى أن تحفظ أسرك لها لتظل دائما مستقرك الأمين ، حينئذ أمضي مع الحياة لا تفوتنى منها لحظة أتمثلك فيها شيئا يمكن للعين أن تراه ، فكيف أرضي وفاءي إليكِ وأعماقى تفرزكِ كائنا تلمسه اليد وتسمعه الأذن ؟ أنت ضياء نفسى وهل يُرى مثل هذا الضياء؟

مضى بعض الوقت وهو يرهف السمع ويدقق النظر ثم يعود ليجيب هاتفا هتف به :

ـ نعم للضمير أن يطمئن ولآلامه أن تسكن .. تلك التى تتحرك منفعلة كلما رغبت فى مشاهدتك فيستمر لومه وتتكرر أناته.. « كيف تلوث طهرك برغبتك؟»

ثم أضاف وهو يستدعى كل إرادته :

ـ يمكننى اليوم أن أحفظ له نعيمه بك كاملاً دائماً فلا أسترق من يومه لحظة تنطلق فيها من أعماقى كينونة الحياة فيكِ ، أظل أحفظ سركِ وأسكنُ لأسركِ ، إنك لابد ستدركين سر هذا وتذكرينني به ، لابد أنك فى أعماقى ستحيين حياة الأبد وتدركين كم جهدتُ لتستقري كما تستقر الأكوان بسننها فلا تستجيب لرغبة طارئة.

أخيراً قال ودمع عينيه يختلط بفرحة غريبة :

ـ اسعدى يا حبيبتى كما سوف أسعد ..

سعادة كاملة لأننا سوف نفترق إلى الأبد.

* * *

حجرة عم مسعود

حجرة أرضيتها مربعة ، طولها أقصر قليلا من قامة رجل، ارتفاعها فى بعض جوانبها يقارب ارتفاعه لأنها ذات سقف مائل ، ليس لها منفذ سوى بابها ، أى أن الشمس تجهل جدرانها ولايعرفها ضوء النهار ، مع أن حجرات العمارة كلها واسعة ومريحة ذات منافذ للشمس والهواء ، لكن يبدو أن مالك العمارة المدبر أراد أن يستثمر فراغا لاحظه تحت السلم فأنشأ جدارا به فتحة وصنع حجرة لعم مسعود.

كان مسعود هذا شيخاً مسناً جاوز السبعين ، تساقطت شعرات رأسه البيضاء، نحلت أعضاؤه ومفاصله تقوس ظهره قليلاً لقصر طوله ، وإن تبقى من قوته ما يحفظ عليه الحركة ويساعده على صعود وهبوط ملبياً داعى وظيفته إذا ناداه أحد السكان.

هو يحيا وحيداً بعد أن ماتت زوجته منذ سنوات فأفسحت له حجرته الضيقة وقد كانت لاتتسع لكليهما معا.

كنت أدهش لقدرته على الجلوس أمام باب العمارة ساعات طوال لاينطق لأحد بحرف ، صدقت ظنى أنه يكون نائما على تلك الحال ، أتساءل كيف يدبر أمور معيشته مَنْ فى مثل ظروفه ثم أتنبه إلي أنه لايزال يعيش ويتحرك وهذا دليل أنه يتدبر أمره بطريقة ما. سألت مرة أحد الجيران عنه إن كان له ولد فقالوا له أولاد يزورهم ويزورونه بين الحين والحين.

اعتدت كلما مررت به فى ذهابى وعودتى أن أُلقى عليه السلام ،كان نادراً ما يجيب ، مع أننى إذا ناديته من الدور السابع لأمر ما لبى النداء على الفور.

كان يوحى بملامحه الساكنة وصمته القاتل وحركته المترددة أنه ينتظر نهايته ويتلهف عليها ويحاول أيامه الباقية أن يعتاد قبره القريب ويطمئن إليه.. هكذا تشهد أحواله.

فى مساء أحد الأيام تناهى إلى سمعى أثناء نزولى درجات السلم صوت غريب خُيل إلىّ كأنه بكاء أو تأوه مكتوم ، خمنت أنه صادر من أسفل السلم فلابد أن يكون صاحبه عم مسعود . لم أكن قد أقحمت نفسى على مأواه من قبل فترددت أن أدق بابه لأستفسر عن حاله ،لأن دافع الفضول فى نفسى كان أقوى من باعث الشفقة ، لكن وضوح الصوت وتميزه وقد اقتربت من حجرته حدّ من ترددى ودفع بيدى تدق بابه وصوتى يقول:

ـ ماذا دهاك يا عم مسعود .. مالك يا رجل ؟

مضت دقيقة قبل أن يفتح الباب ثم تطلع فى وجهى يميزه وقال بصوت مرتعش.

ـ أهلا يا سيدى ..

كررت عليه سؤالى فأجاب:

ـ فقدت ما ادخرته طوال ستة أشهر ماضية .. هكذا كأن لم تكن.

حرك كفيه معبراً عن حسرته ، فسألته مستفسراً:

ـ هل سُرقت .. أى لص أحمق تنزعه نفسه لسرقتك؟

عاجلنى بقوله:

ـ لم أسُرق لكننى فقدته أثناء سيرى .. ربما سقط منى سهواً ولم ألحظه .. ولاحول ولا قوة إلا بالله.

سألته بفضول واضح:

ـ هل هو مبلغ كبير؟

فأجاب:

ـ لا أدرى هل هو كبير فى نظرك أو نظر سواك .. لكنه فى نظرى ادخار ستة أشهر فكيف أستهين به.

عدت أسأله..

ـ هل كنت تنوى إنفاقه على أمر هام ؟

ـ كنت أنوى شراء دفاية جاز تقينى شر الرطوبة اللعين.. لكن لا فائدة من الكلام.

سكتّ ، فلاحظ انشغالى وترددى ، فقا ل بسرعة :

ـ أرجو يا سيدى أن تفهم أننى لا أقبل عوضاً أو إحساناً .. إنما حزنت لفقدان ما أملك .. كيف أشعر بالحياة إذا لم تؤكده إضافة أراها وأحسها فيما حولى؟

لم أكن أنصت إلى الرجل جيدا إذ تنبهت لموعدى ، قلت له وأنا أهمّ بالانصراف:

ـ لم أقصد الإحسان عليك يا عم مسعود .. إنما شغلنى تقلب حالك .. ألم تكن فى حالتك المعتادة منذ حوالى ساعة .. متى اكتشفت ما حدث؟

ـ فى الصباح

تعجبت لأمره وسألته من جديد:

ـ لكنك لم تكن حزينا بائسا كما أراك الآن.

فقال مفسراً أو مبهماً :

ـ حين استدعيتنى لأمرك منذ ساعة كنت أؤدى عملاً ولا يحق لى إقحام همومى على عالمك ، الآن فى حجرتى وفى عالمى يحق لى أن أحزن وأبتئس .. أن أفقد أملاً أو أطمح لسواه حتى تتوقف الحياة.

انطلقت لموعدى ، قيم الأشياء تختلف فى نظرى ، وأبعاد الحجرات تضيق وتتسع.

* * *

درس لاينتهى

كلما أتى موعد هذا الدرس غاص فى جنبيه قلبه ، اضطربت وساوسه استيقظتْ فيه مخاوف الوقوع بين براثن هذا الأستاذ الذى لايرحم طالباً مهما كان عقله أو خلقه ، يلاحقه بأسئلته القاسية ، يرهقه بنبرته المتهكمة ، يستخف بفهمه أمام زملائه . لم يكن يسمح لأحد بالخروج من محاضرته أو بالتغيب عنها مهما كانت الأعذار ، يوشك أن يحفظ بذاكرته كل الوجوه مهما اختلف مجلسهم وويل لمن تثبت عليه تهمة الغياب ، الحَكَم الوحيد فيها ذاكرة الأستاذ.

جلس فى موقعه البعيد بالصفوف الخلفية تحدثه نفسه أن دوره آتٍ لا محالة اليوم سيواجه ذلك الأستاذ مهما حاول التخفى . لم يمض من المحاضرة نصفها حتى أشار إليه الأستاذ فنهض مرتبكاً متخاذلاً توشك أن تخرسه غصته.

ـ ما اسمك؟

ـ .....

ابتسم ابتسامة باهتة وقال :

ـ لم أعرف أن أحدكم يحمل اسمى ... ما علينا ، هل تستطيع أن تفسر لنا فروض نظرية الحركة التى شرحتها فى محاضرتى السابقة؟

كانت عيناه على المحاضرة السابقة منذ لحظات لكنها انمحت من ذاكرته محواً فلم يتبق منها أى أثر .. تلعثم فى اجابته وهو يقول :

ـ نعم .. إننى .. فى الحقيقة ..

لم يتركه الأستاذ يسترسل فى صياغة مفردات متفرقة لامعنى لها فقاطعه صاخباً.

ـ الحقيقة التى أراها أنك وأمثالك لاتصلحون لعلم وإنما أنتم وما تجلسون عليه سواء .إجلس سوف أنتظر ورقتك آخر العام.

جلس يتفصد عرقاً كأنما استيقظ من كابوس مرعب.

انتهت المحاضرة بعد دهر ، اتخذ طريقه عائداً لبيته من فرط دهشته تألقت فى ذهنه إجابة ما سأله فيه أستاذه واضحة منظمة ، فتح كراسته بسرعة يتأكد من خاطره فتأكد له ، امتلأت نفسه كراهية لهذا الأستاذ ، فلولا سخريته ورهبته ما اهتزت ثقته وما انتصر خوفه ، كان سيجيب بغير شك ويؤكد فهمه وتحصيله لدرسه.

اخترق بصره المستقبل فتراءت له نفسه قد اجتازت الإمتحان النهائى بكفاءة عالية وحصل على مركز متقدم واتخذ طريقه فى الحياة باقتدار فارتقى أعلى المناصب ، تصور أن منزلته سمحت له باستدعاء هذا الأستاذ إلى موقعه والحديث إليه باستكبار ، أنه بإزاء ذلك سوف يتوسل إلى تلميذه القديم بسنه ويستعطفه بدرسه لكنه لن يغفر له حينئذ ولن يرحمه.

مرت سنون ، تخرج وإن لم يحصل على مركز متقدم ، وجد عملاً لكنه لم يرق به لأعلى المناصب ، لم تسمح له منزلته أن تمتد يده لمن شاء بالرحمة أو العداء.. يُفاجأ يوماً بالأستاذ يقترب منه فى مشيته الواثقة المتعالية ثم يمر به دون أن يلحظه أو يلتفت إليه ، وبغير إرادته أسرع لملاحقته وهو يرفع إليه صوته مناديا.. « يا أستاذا» ، نظر إليه الأخير بجمود وسطوة وأجابه :

ـ ماذا تريد ..هل أعرفك؟

تلعثم وارتبك ، أصابته نظرته بخوف غريب .. ثم استجمع شجاعته وقال :

ـ لايا سيدى . معذرة فقد اختلط الأمر علىّ.

مضى عنه الأستاذ غير عابئ كما كان يمضى دائما وقد انتهت محاضرته .

* * *

حَـوَل

قالت الزميلة المخلصة وهى تسعى نحوى مستبشرة :

ـ لقد وجدت ضالتك يا أستاذ « مرتضى» بعد أن أعيانى البحث.

نظرت إليها وذهنى يسعى لمعرفة ما تقصده من كلامها وملامحها ، فقالت بدهشة:

ـ هل نسيت ما طلبته منا منذ شهور ؟ ألم تقف بيننا وتعلن : « أيها الزملاء أعينونى إن كنتم فى دعواكم مخلصين».

تذكرت هذه الدعوة التى أطلقتها بين شغب المناقشة ولجاجها حين حاصرنى زملائى وزميلاتى بدفاعهم عن الزواج والمتزوجين ، عبثاً حاولت إقناعهم بأنى أعرف قيمة الزواج وأحبذه ، ليس ما يمنعنى عنه سوى غياب فتاتى التى أنشدها بين طوايا الغيب المجهول ، كيف يفهمون أن يصل عمرى إلى الخامسة والثلاثين دون أن تصادفنى فتاة تعجبنى ، لابد أن فى الأمر سراً كما قرروا وسيثبتون ظنهم بالدليل .. سألونى عما أنشده فى فتاتى وأجبتهم ، صمتوا قليلاً وبدا عليهم شبه اقتناع بندرة ما أبحث عنه ، ثم عاودوا سؤالهم عن مدى ما أتنازل عنه من مثلى الأعلى إذا أدركنى الواقع بحقيقته ، فأخبرتهم بوضوح أن الجوهر الإنسانى فى نظرى هو الأساس ، تتفاوت درجات القبول فيما عداه ، ذهبوا عنى حينها بين تصديق وتكذيب . لقد أخذت زميلتى المخلصة الأمر بجدية غريبة وأتت تزف إلىّ بشرى لا أطمئن لفحواها .. قلت لها بخبث لاينطلى علىّ من مثلها :

ـ كانت دعوى قصد منها التملص ، لكنك صدقتنى!

نظرت إلىّ ملياً ، ابتسامة ماكرة تلوح على فمها ثم قالت :

ـ أحقا؟

قلت:

ـ لكنى على كل حال لن يعيينى سماعك فتفضلى.

قالت وسخريتها تغالب مكرها :

ـ والله ؟! الأمر مجرد هزر ؟ سوف أدعك اذن وأمضى لعملى طالما الموقف كذلك ، حين تكون جاداً فى حديث جاد يمكنك أن تسألنى.

همت بالذهاب حقيقة ، أو خّيل إلىّ ذلك ، فأدركتُها مسرعاً بقولى :

ـ لمّ أنتِ سريعة التصديق هكذا ؟ هل رأيتنى يوماً جاداً أكثر من هذا اليوم البعيد حتى تماطلينى .. هاتِ ما عندك .

قالت وهى تظهر زهو انتصار :

ـ قلت أن الخُلق القويم هو شرطك الذى لا محيد عنه؟

أجبتها:

ـ لن تصلح لحياة نافعة مَنْ ليست بخلق مهما أُوتيت من جمال فهل من مخالف؟

استمرت تقول:

ـ قلت إن الثقافة شرط من شروطك الخاصة ، لا تحسب نفسك تتنازل عنه مهما كان المقابل له من خفة ظل أو طلاقة وجه أو حسن قوام ؟

أجبتها:

ـ من يعشق المعرفة ويتطلع إلى سماء العلم لن يرضى بعشقه ذاك بديلا من سعى وراء شهوة فانية أو خفة عابرة.

مضت تقول:

ـ وقلت أن المرأة التى تعرف النظام فى حياتها قادرة على تحمل المسئولية مبشرة بأم صالحة تبنى أسرتها ومجتمعها بناءً سليماً ، وإن لم تكن واهبة لأبنائها جمال الصورة؟

أجبتها:

ـ بم يفيد الولد جمال صورته اذا افتقد رعاية أمه واهتمامها ؟ هل يؤسس المجتمع الصحيح إلا الأصحاء ؟ لن تعرف معنى الرعاية والعطف مَنْ تفتقر إلى النظام فى حياتها.

عادت تقول وهى تؤكد بنبرتها كل كلمة تفوه بها :

ـ قلت أن المال والجمال من الأمور العارضة التى لاتغنى عن الجوهر الانسانى شيئاً ، بالطبع لاضير منها إذا اجتمعت مع حسن الشمائل السالفة؟

أجبت بقليل من ضجر :

ـ ألا يقنعك قولى أن الانسانية فى سموها أعظم وأحب إلىّ من مظاهرها المونقة ، أن الجمال فى عينى جمال روح رقراق صاف من أوضار الجسد بحاجاته المتكالبة ، أننى أبحث عن الصدق فى النظرة قبل أن أبتهج لجمال العين ورونق الجفن والحاجب ، أهفو لحقيقة ينطق بها وجه إنسانى معبر قبل أن أتلمس دقة أنفه ورقة شفتيه وملمس بشرته .. حتى الصوت إن لم يحمل صدقاً قبح فى أذنى ولو كان أعذب الأصوات..

كانت تنصت إلىّ والحماس يشع فى ملامحها تنتظر لحظة مناسبة تقطع فيها استرسالى ، ثم قالت وقد سنحت لها فرصة :

ـ يمكننى إذن أن أخبرك عن يقين ودون أدنى ريب أنى وجدت فتاتك.

قلت والأمل الكاذب يراودنى يستعصى عليه أن يؤالف نغمتها الواثقة:

ـ كثيرا ما قال لى الناس مثل ذلك وأضافوا إليه المال والجمال بدرجات عالية وعبثاً كانت النتيجة.

قالت بجد:

ـ أما أنا فلا أضيف ما ليس بحق ، ربما تصدقنى لو قلت أنها قليلة الحال فى المال فقيرة فى الجمال ، لكنها أرفع ما تكون مقاماً فى الثقافة والعلم والنظام ، يزينها خلقها القويم.

سكتُ عدة دقائق أفكر ثم سألتها فى تردد:

ـ أهي فقيرة فى الجمال جداً ؟ ذلك طبعا لو صدق عليها ما وصفت من حسن الشمائل السابقة!

أجابتنى فى خبث وهى تفتح حقيبتها :

ـ كنت أنتظر منك سؤالاً كهذا ، فالرجال دائماً رجال .. هذه صورتها أحضرتها معى .

أمسكت بالصورة ووضعت على عينى نظارتى لأجلوها بوضوح ، كان أول ما لمحته منها شعرا قصيراً مجعداً ، ثم نظرت فى الوجه فرأيت عينين ضيقتين فيهما حَوَل خفيف لكنه ملحوظ ، عظمتا الوجه بارزتان نائتان زادتا من ضيق عينيها، الفم أقرب للاتساع تكشف الابتسامة منه أسنانا منتظمة حسنة المنظر أفصحت عن قبح الشفاه التى تمنح الرجال حصناً واقياً من الغواية إذا ألحت فى نداء ، لكنى لم أشعر فى نظرتى إليها بضعف ينطق عنه الوجه القبيح أو خجل واستياء يتواريان فى العينين المنكسرتين المنطفئتى البهاء .. بل لمحت إحساساً بالثقة تعبر عنه الجبهة المتعالية ، وشعاعاً من الذكاء الملحوظ نافذاً من البصيرة إلى البصر ..

وشيئاً ما تكاد تنبس به الشفاه ، لابد أنه ضرورى وهام .. يبدو أننى أطلت إليها النظر فقد صاحت زميلتى باستياء :

ـ ليس من حقك بأى حال أن تسخر من أحد مهما كان .. ما معنى هذه الابتسامة التى تتشكل على فمك فى خبث ؟ إنها لعلمك لاتخجل من حَوَل عينيها إن كنت تسخر منه.

أدركتها بسرعة قائلا:

ـ لقد أخطأت نظرتى يا زميلتى ، إنى أرى فيها ثقة وتعاليا يعز محضره فى أجمل الوجوه ، إنما ابتسمت من المفارقة.

تأملتنى تستطلع جدى فى قولى فلم أهتز .. قالت بعد لحظات :

ـ سأمهلك يومين لتفكر ثم أبلغنى قرارك ، لن أقسو عليك فأطلب منك جوابك فى الحال ، وان لم يكن هذا بقسوة على مَنْ هو مثلك

قلت لها قبل أن تمضى عنى لشأنها:

ـ هذا بشرط صدق وصفك لها وإلا فلا إصر علىّ

فأجابتنى بزهو غريب :

ـ إذا كان ما حدثت أنت به عن الجوهر الانسانى صدقاً.

أخذتنى العزة بما حدثت به وقد استشعرت فى ثنايا كلماتها تحدياً ساخراً، كيف يخطر ببالها أو بأى بال أن مبادئى وآرائى مجرد كلام لاتصمد للتجربة وحقائق الحياة ؟ الذى يهمنى فعلاً الجوهر الانسانى والخلق القويم وإن افتقد الشكل الحسن والمظهر المونق ، هل ينتقص ذلك من قدره بأى حال ؟ لا والله! فليكن شعرها قصيراً مجعداً فالذى يهمنى حنان ورحمة تأتلف بهما روحها، ليكن بوجهها شحوب ونحول فالذى أقدره رقة مشاعرها وصفاء نفسها ، لتكن عيناها

ضيقتين ففى اتساع ذهنها ورقى مسلكها أعظم بواعث الرضى والقبول، ما الذى أجنيه من عيون مفتوحة والعقول مغلقة جامدة ؟ والحَوَل الخفيف تعادله تلك الثقة العالية بالنفس وشعاع الذكاء النفاذ ، فهو علامة القوة الخافية وليس إشارة ضعف ظاهر لا أثر له .. وهل يرنو طالب الكمال لمتعة توحى بها شفاه وعيون؟ كما أن الشعر المجعد يسترسل وينسدل بقليل من الصباغة والكّى، والعيون الضيقة تتسع ـ اذا شئت ـ برموش زاهية ضافية تلصقها الأيدى بالجفون فتعطيها المظهر المطلوب ، بعض أدوات التجميل يمنح الوجه الشاحب خيالا ورومانسية شفافة حالمة . ألا تفعل ممثلات «السينما» بوجوههن ما يشأن ، فلاتعرف لصورهن شكلاً ثابتاً إن جميلا أو دميما ؟ بل إن هناك ممثلة عالمية بعينيها حَوَل جميل ، فما الذى يبعث بمخيلتها ايحاء بأن ما حدثت به عن الجوهر الانسانى ليس صدقاً ؟ لم هذه النظرة المتحدية والنبرة الساخرة من عينيها ولسانها ؟ هل تتوقع أن أرفض عرضها فتهزأ من مبادئى وتسخر من شروطى ثم تعلنها سافرة أنى أستمسك بكلام فارغ لضعف او خوف ! لا بد أن أذهب إليها فى الحال وأخبرها أنى موافق على ما قدمت ان كان ما أبدته هى صدقاً ولم تفترض فيها ما ليس موجوداً.

توجهت إليها بموقع عملها يسوقنى احساس بأننى انتصرت لنفسى وهزمت ظنها فىّ وأنى لامحالة قاهر سخريتها وتحديها المزعوم.

قلت لها :

ـ لن أنتظر يومين أو ساعتين ، بل أقبل ما عرضت فى الحال. ما الذى يؤخرنى يومين عن رأى محصته سنين؟ كان يكفيك قبولى مهلتك لتتحققى من ترددى وتُراودك فىّ الظنون لكنك وهمت منذ البداية.

التفتت نحوى تتفحصنى بغموض كأنها لم ترنى منذ قليل ثم قالت:

ـ أنت تستحقها على كل حال .. طالما أنك قبلت بتلك الصورة الدميمة . هذا دليل صدقك وايمانك بمبدئك وما كان ستاراً لضعف أو خوف كما ظننا.

لم أفهم ما تعنيه فسألتها مستريباً :

ـ ألا تلحظين ما فى كلامك من اضطراب وخلل؟

ردت على شفتيها ابتسامة غريبة لم أفهم لها معنى ، ويدها تفتش فى حقيبتها.

ـ سوف تفهم كل شئ يا « مرتضى» لكن أنظر أولا إلى هذه الصورة.

تناولت الصورة فى حيرة نظرت فوجدتها لفتاة رائعة الحسن رشيقة القوام، لم أداوم النظر فيها ، بل رفعت رأسى لزميلتى المحيرة وسألتها بغضب ظاهر:

ـ ما معنى كل هذا بحق السماء ؟ لقد أرهقتينى.

أجابت بثبات وجد :

ـ الفتاة التى حدثتك عن ثقافتها العالية وخلقها القويم هى فى الحقيقة صاحبة هذه الصورة التى بين يديك ، ذات الحسن والجمال ، إنما طلبت هى منى حين وصفتك لها وما تفترضه من شروط فتاتك أن تختبر حقيقة ما تدعيه من حرص على الجوهر الانسانى كما وصفت ، قالت لو أنك كنت صادقاً فى زعمك فسوف ترضى بصاحبة الصورة الأولى ، حينئذ تكون هى لك هدية السماء .. ها أنت قد فزت فهنيئاً لك حظاً سعيداً موفقاً .. فتاة ما راودت أحلامك مثلها.

قلت مذهولا من المفاجأة :

ـ أحقيقة ما تقولين ؟ أيعنى أن ..

قاطعتنى قائلة بحماس :

ـ يعنى أن تبتهج نفسك ويبش قلبك .. يعنى أن تشكرنى وتلتمس منى الوساطة بينكما . لتعرف أن لك زميلة مخلصة.

قلت بنصف وعى :

ـ والشعر المجعد القصير

سمعتها تقول :

ـ أصبح ناعما أثيثاً ذا رونق وبهاء جديراً أن يحيط برأس فتاة.

ـ الخدان الشاحبان وما يوحيان به فى النفس من خيال وأحلام؟

ـ يُشعان بالصحة وينضحان بالشباب .. ذوى بشرة ناعمة وملمس رقيق تهفو إليه أنامل الرجال.

ـ والشفتان اللتان تهذبان للنفس غريزتها وتضمران أصدق معانى الزهد والاستعصام.

ـ ثغر ملائكى يحكى لك عن نعيم الرحمن ، ترتشف من رحابه رحيق الحياة.

ـ وعينان ضيقتان تنطقان بذكاء تتعالى بهما الجبهة وتشف عن كبرياء.

ـ عينان مشرقتان تفصحان بالبهجة والسعادة ، أظلهما حاجبان خفيفان ورموش ضافية ترسل فى النفس راحة وطمأنينة ولاتحرمان مع كل ذلك من ذكاء.

ـ وذلك الحَوَل الخفيف .. نعم ذلك الحَوَل؟

ـ أنتَ تثير ضحكى يا « مرتضى» ، ما هذا الذى تقول ؟

ـ أنتِ لاتفهمين ما أقول ولن تفهمى سواه.

ـ وهل يفهم أحد أن تتنازل عن هذا إلى ذاك؟

ـ ليفهم أو لا يفهم فلن أقبل بسواه .. لن أقبل سواه.

رددت ذلك بوعى كامل وقد بدا لى أنها فقدت الوعى.

* * *

صدر للمؤلف

باللغة العربية:

١- حصاد الفن (مجموعة قصص قصيرة)
٢- ملامح الريادة الإنسانية
٣- ميراث العهد (رواية)
٤- وعد العمر (رواية)
٥- تحديات الإنسانية فى قرن جديد
٦- حينما تهدى الأقدار (رواية)
٧- حوارات عن الإسلام والمسلمين من شرق العالم إلى غربه
٨- الحاجز الصخرى (رواية)

باللغة الإنجليزية:

٩- The Story of Excellence

فهـــــرس

	الروايـــــــــة	رقـــم الصفحة
	تقديم	٣
١	على حافة الحياة	٥
٢	علاقة خاصة	١١
٣	الترحال في اقتفاء الذات	١٤
٤	الشقراء بين المد والجزر	٢٢
٥	وحدة المتساويان	٣٠
٦	نهر إلبا وحقيقة واحدة ممكنة	٣٢
٧	نهر المجـــــد	٣٩
٨	شجاعة حب	٤٢
٩	يوم قابلت أحزاني	٤٧
١٠	شعاع حيـــاة	٥٢
١١	أسرى الأحلام	٦٠
١٢	غير مرحب به	٦٤

١٣	قرية الشموع	٦٧
١٤	المكتشفون	٧١
١٥	لحظة زمن	٧٤
١٦	حصاد الفن	٨٠
١٧	توافقيـــات	٨٣
١٨	المعطف الأسود	٨٦
١٩	وميض وشعـاع	٨٩
٢٠	مطاف الفكر	٩١
٢١	عاطفـة	٩٥
٢٢	بيبـــو	٩٦
٢٣	إنسان متحضر	٩٨
٢٤	سر اللامعقول	١٠٠
٢٥	قبلة المحب	١٠٢
٢٦	خطـــان	١٠٤
٢٧	ملك الأحلام وحقيقة واحدة	١٠٦
٢٨	أواني مكسورة	١٠٩

٢٩	انتفاضة للحرية	١١٤
٣٠	صاحبة المعطف أو اللاوعي	١٢٠
٣١	ملك الأحلام ..هل يسترد ما فقد	١٢٣
٣٢	سر القيـــادة	١٢٧
٣٣	ختم الشمع	١٣١
٣٤	منتهى الحب	١٣٣
٣٥	حجرة عم مسعود	١٣٥
٣٦	درس لا ينتهي	١٣٩
٣٧	حَـــــوَل	١٤١
	صدر للمؤلف	١٤٩

رقـــم الايـــداع
١٣٩٠٤ / ٢٠١٩

الترقيم الدولي I.S.B.N 978-977-209-276-5